

تفسير
ينبوع الحياة

تأليف

محمد بن محمد بن بن ظفر الصقلي

(المتوفى ٥٦٥هـ)

تابع سورة ﴿ طه ﴾

(١٥١/أ)

الكلام على قول الله سبحانه : ﴿ قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لامساس ..... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلمًا﴾ (طه من آية ٩٧ – آية ١١١) .

أفرد الله سبحانه السامري بحكم سوى حكم من عبد العجل معه فإن من سواه منهم لم يكف في توبته العود إلى التوحيد لكن فرض عليهم مع ذلك الاستسلام للقتل فمن قُتِل منهم فقتله توبته ، وأما السامري فعوقب في الدنيا بالنفي وبأن لا يمس أحدًا ولا يمسه أحد ، قيل: لحق هو وولده بالبرية منفردين عن الناس مجتنبين فإذا لقي أحد منهم أجنبيًا عنه قال له : لا مساس ، أي لا تمسني ، قيل : فإن مسه أحد أصابتهما معًا الحمى لوقتهما ، وقد يكنى به عن المخالطة والمقاربة ، أنشد أبو عبيد :

ووتر الأساور القياسا صغديةً تنزع الأنفاسا

حتى يقول الأسد لا مساسا

ومنهم من يفتح الميم فيبنيه على كسر آخره مثل « نَزالِ ».

(١٥١/ب)

﴿وإن لك موعدًا﴾ ، يعني الآخرة ، فهو وعيد بالعذاب . وقوله : ﴿ظَلْتَ﴾أصله ظللت ، فحذفوا إحدى اللامين ، واختلفوا في حركة الظاء فمنهم من أبقاها على الفتحة الأصلية فيها ومنهم من نقل إليها كسرة اللام المحذوفة .

﴿ لنحرقنه ﴾ يعني التحريق بالنار ، فأحرقه وزَرَّاه في البحر ، قاله ابن مسعود وغيره ، وهو الأولى ، يقول ابن عباس : لأنه قال صار حيوانًا .

وروى الضحاك عنه أنه قال: برده بالمبارد ، ثم ألقاه في البحر ، فهذا يناقض القول بأنه صار حيوانًا ، إلا أن يريد عظامه.

ويقول : حرقت الحديدة بالمبرد حرقًا، إذا بردتها ، والمبرد المحرق ، والبرادة الحراقة ، وحرق البعير أنيابه إذا حك بعضها ببعض .

فمن قال : كان عجلا مصوغًا ، قال : أمر فبرد بالمبارد ، ثم نسف في البحر . وعليه قراءةُ من قرأ : لنحرقنه بفتح النون وضم الراء ، قال الشاعر :

أبى الضيم والنعمان يحرُقُ نابه عليه فأعيى والسيوف معاقله

وإذا رفعت التراب وما ضاهاه لتأخذه الريح فقد نسفته .

﴿إنما إلاهكم الله ... ﴾ الآية. هذا من قول موسى لعَبَدةِ العجلِ .

﴿ وسع كل شيء علمًا﴾ ، قال ابن عباس : علم ما كان قبل أن يكون . وقيل : أي أحاط علمه بكل شيء ، وقيل : معناه لا يعجزه علم شيء ؛ لأن وسع بمعنى أطاق ، أنشدوا :

حمال أثقال أهل الود آونة أعطيهم الجهد مني بله ما أسع

أي أعطيهم ما يشق على فدع ما أطيقه وأقدر عليه ، وقرأ قتادة : « وسَّع كلَّ شيءٍ علمًا » ، كأنه أراد أنه علم تفاصيل المعلومات فكان علمه فرق جملها فاتسعت بذلك ولم يوافق عليها .

﴿ كذلك نقص عليك﴾، أي كما أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي كذلك نخبرك . و«الأنباء » الأخبار والذكر القرآن اسم له ، قال ابن عباس : أعطيناك من عندنا القرآن و«الوزر» : الحمل الثقيل من الإثم .

وقوله : خالدين فيه أي في عذاب الوزر .

« وساء » بغيض سر [لعلها (شر)] .

يوم ينفخ بدل من قوله : يوم القيامة ، والقراءة بالنون لقوله تعالى : « ونحشر » ، والمجرمين : الذين أجرموا الشرك سيماهم يوم القيامة سواد الوجوه ، وزرق العيون ، قيل: هو خضرة الحدقة ، وقيل: المراد بزرق العيون شدة العطش لأنه يفعل ذلك .

﴿يتخافتون بينهم﴾ الأنين أصل الخفوت الضعف ، ثم استعمل في إسرار القول ، قالت امرأة :

أخاطب جهرًا إذ لهن تخافتٌ وشتان بين الجهر والمنطق الخفت[1]

(١٥٢/ أ) ﴿إن لبثتم﴾ أي في البرزخ في القبور فقال ابن عباس : أي بين النفختين نفخة الصعق ونفخة البعث . قيل: إنهم لا يعذبون فيما بينهما فتقصر عندهم تلك المدة حتى تقول عامتهم ما لبثنا إلا عشرًا أي : عشر ليالٍ، وتقول خاصتهم وأفاضلهم ما لبثتم إلا يومًا ، وقيل: لمَّا عاينوا أهوال المحشر استقصروا مدة لبثهم في الدنيا فشبهها بعضهم بعشر ليال وبعضهم بيوم ، وقيل أمثلهم طريقة أي: أعقلهم، وقيل : أي أعدلهم قولا عند نفسه ، وقد سلف استقصاؤه ، قال ابن عباس وغيره: وبين النفختين أربعون سنة .

﴿ويسألونك عن الجبال ... ﴾ الآيتين.

قال ابن عباس : قال رجل من ثقيف كيف تكون الجبال يوم القيامة ، فنزلت هذه الآية .

وللجبال أحوال تدك بالزلازل دكًا ثم تبس بسًا ثم تنسف نسفًا ، أي تقلع من أصولها .

فيذروها الرياح فتسير كالهباء المبثوث وكالعهن المنفوش سير السحاب والسراب فيسوى بها كل هبوط وحدود وتصير الأرض قاعًا أي مستوية وكذلك الصفصف المنبسط المستوي من الأرض وقيل : لا يكون في الصفصف نبات بخلاف القاع ، قال ابن عباس صفصفًا يريد الأرض التي لا نبات بها وقال ولا أمتى يريد نتوءًا، قال الحسن العوج ما انخفض منها والأمت ما نشر من الروابي ، وقيل العوج ما اعوج من عن يمين وشمال ، والأمت : الهبوط والارتفاع ، وقيل: العوج الصدع ، والأمت الارتفاع؛ معناه عن قتادة . والأمت : صالح للصعود والهبوط معًا لأنهم يقولون مد الحبل حتى ما فيه أمت أي ليس فيه استرخاء فيرتفع بعضه وينخفض بعضه ويقولون ما في الشيء أَمْت أي عيب وهبوط الأرض يشينها كما يشينها صعودها .

والهاء من قوله: « فيذرها» ضمير المواضع التي ركبت عليها الجبال ، وقيل : ضمير الأرض دل عليها ذكر بعضها وهي الجبال.

﴿ يومئذ يتبعون الداعي ..﴾ الآية هو الداعي إلى الحشر والعرض يسمعه الأقصى كما يسمعه الأدنى فيهطعون إليه والهاء من قوله لا عوج له ضمير الإتباع أي لا يعرجون عن صوته يمينًا ولا شمالًا فهو اتباع مستقيم قال ابن عباس : كلهم يتبع الصوت فلا يتعوج عنه .

﴿وخشعت الأصوات﴾ قال ابن عباس : خضعت ، وقيل : خفيت ، والهمس : صوت خفي مثل الركز ، تقول : همست بكذا وكذا ، قيل : هو صوت وطئ الأقدام ، وقيل : هو تحريك الشفتين ، تقول : خفي لا يكاد يسمع ، وقالها ابن عباس وغيره .

«يومئذ لا تنفع الشفاعة ... » (١٥٢/ ب) الآية فمن وصِلَتُها في موضع مفعولٍ للشفاعة ، والمرادُ الشافعُ والمشفوعُ له ، فالشافع هو الذي أذن له الرحمن في الشفاعة فينفعه إن قبلت شفاعته ، والمشفوع له هو الذي رضي الرحمن له قولًا ، والقول المرضي : لا إله إلا الله ، قال ابن عباس وغيره ... شفاعة الشافعين له .

(١) خزانة الأدب ج٦/ ص٢٦١

﴿ يعلم ما بين أيديهم ... ﴾ الآية هذا يعود إلى الذين يتبعون صوت الداعي ، قال ابن عباس يريد ما قدموا وما خلفوا من خير وشر ، وقيل : ما بين أيديهم من أمر الأخرة وما خلفهم من أمر الدنيا وقيل الضمير عائد إلى الملائكة الذين تضمن ذكرهم قوله تعالى : لا تنفع الشفاعة ، فذكرُ الشفاعةِ يتضمن ذكر الشفعاء وكان المشركون يعتقدون أن الملائكة شفعاؤهم عند الله .

«ولا يحيطون به علمًا » أي بالله سبحانه ، لم ينف سبحانه أنه يُعلم لكن نفى أن تحيط به العلوم ، فعلوم الخلق بالله سبحانه وبصفاته قاصرة عنما علمه الله عز وجل من ذلك واعتقاد هذا شرط في صحة التوحيد بل شرط في حصوله وبه يكون الموحد عارفًا بالله سبحانه قادرًا له حق قدره وهو المعني بقول الصديق رضي الله عنه : لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، ومختصر تقديره إلا بالعلم بالعجز عن معرفته لأن العجز عن المعرفة لا تكون معرفة لكن العلم بالعجز معرفة .

«وعنت الوجوه ... » الآية : عنت : ذلت وخضعت وبه سمي الأسير عانيًا ، وقيل : استسلمت ، وقيل : سجدت ، وهذا تخصيص للعموم ؛ لأن الكافر لا يستطيع السجود لله ، كما قال : ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . وذكرت الوجوه لكرامتها على أصحابها .

الحي القيوم : فهو سبحانه الحي بحياة لم تزل وصفًا لذاته ولا تزال القيوم بذاته وواجب صفاته استغناءً عن مخلوقاته ، والقيوم دوامًا لا افتتاح ولا اختتام له والقيوم على مخلوقاته بالإيجاد والتصريف بأحكامه والقيوم على كل نفس بما كسبت فمن عنا لحي سواه أو وكل القيام بأمره إلى من عداه فقد أساء الاختيار لنفسه .

وقد خاب من حمل ظلمًا : الظلم ههنا الشرك إجماعًا قال ابن عباس : خسر من أشرك بالله .

الكلام على قول الله سبحانه:﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾.... إلى قوله سبحانه : ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ (١٥٣/ أ) (سورة طه الآية ١١٢ إلى الآية ١٢٢)

قرأ ابن كثير وحده : فلا يخف وهو إخبار عن التأمين جاء بلفظ النهي عن الخوف ، قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم وحدهما: ﴿ وإنك لا تظمأ ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وحدهم : «يوم القيامة أعمى ».

حشرتني أعمى بالكسر فيهما ، وأبو عمرو وورش عن نافع يميلون الأول إمالة خفيفة ويفتحون الثاني والباقون يفتحونهما ، قرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم وحدهما : لعلك ترضى بضم الثاني . قرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم وحده : أو لم تأتهم » بالتاء المثناة.

فصل :

فتح ابن كثير ونافع وأبو عمرو الياء من : « إني ءانست » ، « إنني أنا الله » ، «إني أنا ربك » ، «واصطنعتك لنفسي اذهب» ، وأسكنهن الباقون .

فتح نافع وأبو عمرو الياء من : ﴿ لي أمري ﴾ ، ﴿ على عيني إذ ﴾ ، ﴿ لذكري إنَّ ﴾ ، «ولا برأسي إني» وأسكنهن الباقون .

فتح ورش عن نافع وحفص عن عاصم وحدهما الياء من : « ولي فيها مآرب » أسكن عاصم وحمزة والكسائي وحدهم الياء من : لعلي آتيكم » فتح ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحدهم الياء من : «أخي اشدد ».

فتح ابن كثير ونافع وحدهما الياء من : «حشرتني أعمى ».

أثبت ابن كثير وحده الياء من : « تتبعني أفعصيت » في الحالين وأثبتها نافع وأبو عمرو في الوصل خاصة وحذفها الباقون في الحالين .

قوله سبحانه : « وهو مؤمن » في موضع الحال كأنه قال : مؤمنًا ، أي : عمل الصالحات في حال إيمانه .

والظلم وضع الشيء في غير موضعه ، والهضم النقص ، ومنه قالوا للخمصان : هضيم الحشا أي لا يجزي بالإحسان إساءة ولا ينقص من ثواب صالح عمله شيئًا ، وقيل : أي لا يحمل عليه سيئات غيره ولا ينقص من حسناته ، قال ابن عباس : لا يزداد في سيئاته ولا يهضم من حسناته .

﴿وكذلك أنزلناه ...﴾ الآية ، هذا متعلق بقوله تعالى : ﴿ كذلك نقص عليك﴾ ونسب القرآن إلى العرب ، لأنه بلسانهم وهي نسبة تشريف لهم ومنٍّ عليهم [٢].

﴿ وصرفنا فيه من الوعيد ﴾هو ما ذكره من صنوف ما عذبت به الأمم المكذبة ومن أنواع ما أعد لهم في الدار الآخرة .

«لعلهم» يعني: من لم يؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم .

«يتقون » أي : يقون أنفسهم بتوحيده عاقبة وعيده .

﴿أو يحدث لهم ذكرى ﴾، أي : اتعاظًا ، يكون ما يسمعونه من الوعيد سببًا لذلك قال ابن عباس : يريد كي يتقوا الشرك أو يحدث لهم موعظة .

---

(٢) في الحاشية : « ».

﴿فتعالى الله﴾ الآية : تنزه سبحانه وتعالى عن ما افتراه المعنيون بقوله لعلهم يتقون . والملك حقه (١٥٣/ ب) والحق نعته ، قال ابن عباس : الملك الذي بيده الثواب والعقاب ، قال غيره لمَّا اتصف سبحانه بأنه الحق كان دليلُ خطابه أن شركاءهم باطل كما قال: « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما تدعون من دونه هو الباطل » .

« ولا تعجل بالقرآن ... » الآية . قال ابن عباس : أعطى الله رسوله من القوة حتى كان يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي ، وقال في لفظ آخر : حرصًا على الحفظ ، وقال غيره : كان يتكلم بأول ما سمع من جبريل قبل أن ينتهي جبريل إلى آخر الكلام خوفًا أن ينسى الأول فضمن الله تعالى له أنه يجمعه في صدره فلا ينساه وأمره بالإنصات لجبريل حتى يفرغ من قرأته فهو كقوله تعالى : ﴿لا تحرك به لسانك ... ﴾ الآية . وقيل: أي لا تنشر القرآن على أحد من أمتك حتى نبينه لك ، كما قال : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » أي: تتبع قراءة جبريل إنصاتًا إليها وعلينا أن نبينه لك ، والقرآن هاهنا القراءة ، ومثله : « وقرآن الفجر » أي قراءة صلاة الفجر . وتقول قرأت قراءة وقرآنًا سواء . وذهب الحسن إلى أنها أنزلت على سبب وهو حيث روي لنا عنه وعن قتادة مرسلا واللفظ للحسن : أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت إن زوجي لطم وجهي فقال : بينكما القصاص ، فأنزل الله هذه الآية : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه » فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل : « الرجال قوَّامون على النساء ... » الآية .وفي لفظ آخر عن الحسن لطمها وجرحها ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أردنا أمرًا وأراد الله غيره . فالتقدير على ما قاله الحسن ولا تعجل بأحكام القرآن قبل أن تفرغ من بيان وحيه لأنه عجل فقضى بالقصاص الذي في القرآن وكان قد قضى من بيانه استثناء الاقتصاص من الرجل لامرأته في التأديب الذي تستحقه بالقوامة عليها .

« وقل رب زدني علمًا » أي : بالقرآن ومعانيه وكان ابن مسعود إذا قرأها قال : رب زدني إيمانًا ويقينًا ، فكان هذا عنده تفسيرًا للعلم المستزاد ، وقال ابن عباس : يريد قوة على ما علمتني .

« ولقد عهدنا إلى آدم ... » الآية. العهد بمعنى الوصية ووصية الله أمره ، قال ابن عباس : هو عهد الله تعالى إليه أن لا يأكل من الشجرة .

وقوله : « من قبل » : يعني من قبل العهد إلى ذريته . وقوله تعالى : « فنسي » يحتمل أن يكون النسيان حقيقة فيكون ذاهلا عن عهد الله سبحانه حين أكل من الشجرة وإن كان قد ذكر ذلك العهد حين وسوس إليه الشيطان فيكون هذا من الفوائد التي كررت القصة لأجلها، والأكثرون على أن النسيان هنا الترك ، قيل : أي ترك ما أُمِر به من اجتناب (١٥٤/ أ) الشجرة كما يتركه الناسي .

« ولم نجد له عزمًا » قال الحسن : أي صبرًا عن ما نهي عنه ، وقال ابن عباس : أي صبرًا عن أكلها وقيل : أي وليًا معزومًا عليه ، والعزم في اللغة توطين النفس على الأمر ، وأولو العزم من الرسل هم الذين صبروا على عناد الأمم وشرع الملك ولم توحشهم الوحدة ولا أزعجهم الكيد ولا استفزهم الأذى ، وأولهم نوح عليه السلام .

وقال الله عز وجل في آدم عليه السلام : « ولم نجد له عزمًا » ومعلوم أنه لم يكن مرسلًا حينئذ وهذا في السورة التي ذكر فيها الأحقاف فهذا من الفوائد الزوائد .

« وإذ قلنا للملائكة ... » الآيات . لو لم يكن إبليس من الملائكة لما كان مأمورًا بالسجود فلا وجه لقول من قال : لم يكن ملكًا .

« إن هذا عدو لك ولزوجك » نص على التحذير منه .

« فلا يخرجنكما » بيان لكون إبليس ساعيًا في [إخراجهما][٣] من الجنة ولكن الله غالب على أمره أنه خلق آدم ليستخلفه في الأرض وأخبر بذلك ملائكته .

وقوله : « فتشقى» أي بتوقي الجوع والظمأ والعري وحر الشمس ، أي تصير إلى توقي ذلك كله والتأذي به ؛ لأنه عند خروجه من الجنة ذايل[٤] ما كان له فيها مما ذكر وتعوض عنه أعواضًا عديمة الهناء أليمة العناء قال ابن عباس : يريد شقاء الدنيا ونصبها . قال غيره : شقي بالحرث والزرع والحصد والدباس ، وشقيت امرأته بالطحن والعجن والخبز والغزل والنسح ، وكان عناؤها في ذلك عناء له فلذلك قال : « فتشقى » ، وهذا من الفوائد الزوائد .

وكذلك الإخبار أنه ليس في الجنة شمس ولا حر وتقول ضحيت للشمس أضحى ضحيًا وضحوًا و« الضح» قال أبو زيد : هو الشمس والضحى : حرها أول النهار ، والضحاء ممدودًا آخرها بعد ذلك إلى انتصاف النهار وقد سمي بهما ...

« فوسوس إليه الشيطان » الأكثرون على أنه ترآى لبصره فحادثه وقاسمه لقد نصح له فكان في ما قال له : « هل أدلك على شجرة إن أكلت منها لم تمت وكان ملكك في الجنة جديدًا أبدًا ، فذلك قوله : « شجرة الخلد وملك لا يبلى » ، وهذه حجة من قرأ : « إلا أن تكونا مَلِكين » بكسر اللام .

« فبدت لهما سوأتهما » أي : عوراتهما ، وسميت العورة سوءة لأن انكشافها يسوء قال ابن عباس : عريًا من النور الذي كان الله ألبسهما إياه ومعنى طفق لزم قال الشاعر :

ومن يطع الله في أمره فقد طفق النجد نجد العلى

وخصفُ الورقِ : إلصاق (١٥٤/ ب) بعضه على بعض . وخصف النعلي مطارقه جلد على جلدها ويسمى الإشفى الذي يخصف به مخصفًا ، قيل : جعلا يلصقان بعض ورق التين على بعض فاستترا به ، زاد بعضهم وهو يتهافت عنهما .

وقوله تعالى : « فغوى » الغي نقيض الرشد ولا شك أنه في وقت مباشرته ما نهي عنه لم يكن رشيد الأمر في فعل ما نهي عنه خاصة فهو غاو من وجه واحد ورشيد من كل وجه سواه . قال ابن عباس : يريد ضل . زاد غيره ضل عن طاعة ربه وهو الذي أراد ابن عباس ، أي ضل عن الطاعة في الأكل من الشجرة خاصة وهو مهتد في الإيمان بالله سبحانه وفي العلوم الذي أتاه إياها وغيرها ثم أذهب الله تعالى عنه المعتبة بالتوبة عليه والاجتباء له والثبات على الاستقامة ، وذلك قوله عز وجل : « ثم اجتباه فتاب عليه وهدى » قال ابن عباس : اصطفاه وأرشده إلى التوبة . قال غيره : حكم له بالثبات على الهدى ، فلا يجوز أن يوصف بالمعصية ولا بالغواية ؛ لأن الله سبحانه قد نسخ الحكم عليه بذلك ، ثم فيه تعيير له وأذى وقد أنكر عثمان رضي الله عنه على الذي قال له : إنك فررت يوم أحد فقال : لم تعيرني بذنب قد عفى الله عنه . ولم يخبرنا الله سبحانه بذلك وأشباهه عن أنبيائه تعييرًا لهم بل ترجية لنا وإطماعًا في سعة رحمته وعلى أنه قد قيل : حقيقة الغي في اللغة الفساد ؛ فمعنى غوى فسد عيشه الذي كان له في الجنة وقيل : كان متأولا في أكله من الشجرة ، وقيل : كان ناسيًا ، وقيل : لم يكن نبيًا حتى أهبط إلى الأرض ، والأنبياء معصومون من الكبائر بإجماع أهل السنة ، واختلف في عصمتهم من الصغائر والذي نعتقده من ذلك أن الصغائر التي جوزت عليهم عبارة عن ترك الأولى وعن هم القلب الذي لا يصحبه عزم وذلك معفو عنه في حق أتباعهم وكل ذلك مبين في مواضعه من هذا الكتاب .

---

(٣) مكانها سواد في الأصل .

(٤) أي : فارق .

ثم نقول حقيقة المعصية مخالفة الأمر والنهي وقد يكون الأمر ندبًا والنهي تنزيهًا ويسمى الإشارة بالرأي أمرًا والمخالفة لـه معـصية ، أخبر الله سبحانه عن فرعون أنه قال لمن يعبده : فماذا تأمرون ثم قال الشاعر :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرأي إلا ضحى الغد

ثم قال :

فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم وإنني غير مهتدي

فسمى مشورته أمرًا ومخالفته معصية وغيًا .

وأما قوله تعالى : « فتكونا من الظالمين » فهو مفسر بقوله : « ربنا ظلمنا أنفسنا » ، والظلم النقصان ومنه قوله تعـالى : « ولم نظلـم منـه شيئًا » (١٥٥/ أ) .

الورقة (١٥٥) ناقصة من المخطوط

(١٥٦/ أ) تقديره : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان العذاب لزامًا لهم ، وقيل : اللزام : الأمر الملازم ، وقال أبو عبيدة : اللزام الفيصل . فاصبر على ما يقولون أي مما يؤذيك وهذا مما ذكر أنه منسوخ بفرض الجهاد وقد سبق القول في أمثاله ، قيل : لا يصح نسخ هذا ومثله ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما جاهد الكفار كلهم ثم الصبر على الأذى في نفسه لا ينافي الجهاد في سبيل الله .

روي لنا أن عبد الله قال : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمًا فقال رجل : إنها القسمة ما أريد بها وجه الله ، قال : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فساررته فغضب من ذلك غضبًا شديدًا واحمر وجهه حتى تمنيت أني لم أذكره له . قال : ثم قال : « قد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر » ، فالصبر على الأذى مما عهد الله تعالى فيه إلى رسوله ولم ينسخه .

﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ أي صل حامدًا له . (قبل طلوع الشمس) ، يعني صلاة الفجر ، (وقبل غروبها) يعني صلاة العصر .

(ومن أناء الليل) يعني من ساعة صلاتي المغرب والعشاء . (وأطراف النهار) قال ابن عباس : الظهر ، قيل : لأن زوال الشمس طرف النصف الأول . وقيل : أي قبل غروب الشمس ، للظهر والعصر ، وكان الصحابة يسمونها صلاتي العشي ، لأن ما بعد زوال الشمس عشي .

وقوله : ﴿ وأطراف النهار ﴾ أي ما بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ، وما بعد صلاة العصر إلى غروبها ، فيذكر الله في هذين الوقتين بالتسبيح والحمد .

روي لنا أن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوسًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها .

قال جرير : يعني العصر والفجر ، ثم قرأ جرير ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لعلك ترضى ﴾ جعله على رجاء من الرضى في الآخرة ، ثم قضى له ذلك قائلا: ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال جعفر بن محمد : لا يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي النار أحد من أمته .

وقيل : أي ترضى عاقبة الصبر ، بشره بعلو الكلمة وأما القراءة بضم التاء فيحتمل معنيين : أحدهما : لعل الله يرضيك ، والثاني : لعل يرضاك ، وقد جمعهما له .

﴿ ولا تمدن عينيك ... ﴾ الآية مبالغة في صرفه عن الطموح إلى الثروة (١٥٦/ ب) والزينة والأزواج من وصف الممتعين ، قال ابن عباس والسدي وغيرهما ، أي : أصنافًا منهم ، وقيل : أي أشباهًا لهم في كفرهم وإترافهم . وقيل : الممتعون هم الأزواج ، أي : رجال من الأشراف ألف ما بينهم التشاكل في الكفر والإتراف ، ثم سمى ما متعهم به زهرةً على وجه التشبيه بالزهر في حسن المنظر وسرعة انفعاله للغير .

﴿ لنفتنهم فيه ﴾ اللام متعلقة بقوله : (متعنا) قال ابن عباس يريد إضلالًا مني لهم ، وقيل : أي لنعاملهم معاملة المختبر ، وقيل : أي ليعذبهم به كما قال : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ ليعذبهم في الحياة الدنيا ﴾ على أحد الوجهين .

﴿ ورزق ربك ﴾ قال ابن عباس وغيره : يريد في المعاد .

وذهب مقاتل إلى ان الأزواج من وصف المتاع كالزهرة ، والمتاع يتضمنه قوله : ﴿ ما متعنا به ﴾ .

وروي لنا أن أبا رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم قال : نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف ، فبعثني إلى يهودي فقال : قل له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك بعني كذا وكذا من الدقيق أو أسلفني إلى هلال رجب ، فأتيته فقلت له ذلك ، فقال : والله

لا أبيعه ، ولا أسلفه إلا برهن ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : والله لو باعني أو أسلفني لقضيته وأني لأمين في السماء أمين في الأرض ، أذهب بدرعي إليه ، ونزلت هذه الآية .

وتلا أبي بن كعب هذه الآية ثم قال : « من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، ومن يتبع بصره من في أيدي الناس يَطُل حزنه ولا يشف غيظه ، ومن لم ير لله عليه نعمة إلا في مطعمه ومشربه نقص عمله ودنا عذابه » ، وقد تحقق النبي صلى الله عليه وسلم في العمل بهذه الآية لفظًا ومعنًى حتى غمض عينيه عند رؤية الإبل العشار ، وأعرض عنها فقيل له : يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم تنظر إليها ؟ فقال : « إن الله نهاني عن ذلك »

﴿ وأمر أهلك بالصلاة ... ﴾ الآية ، قيل : أهله أمته ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ﴾ ، وقيل المراد أهل بيته أمر بحضهم على صلاة النافلة ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا لم يجد في منزله طعامًا فزع إلى الصلاة ، وقال عبد الله بن سلام : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله ضر أمرهم بالصلاة .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا أنكح فاطمة عليًا كرمهما الله لبس أربعين يومًا يبكر كل يوم إلى باب بيتهما فيقول : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله : ﴿ إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ .

﴿ لا نسألك رزقًا ﴾ (١٥٧/ أ) أي لا نسألك رزقًا لنفسك ، معناه : أمره بالإقبال على ما كلفه [من] العمل والإعراض عما ... من الرزق والمال لنفسك ولأمتك .

﴿ والعاقبة ﴾ قال ابن عباس : يريد الجنة لك ولهم .

وقوله : ﴿ التقوى ﴾ قيل : المعنى جزاء التقوى ، وقيل : هو من باب حذف المضاف ، أي لأهل التقوى ، فهو كقوله : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ وقيل: العاقبة : النصر وعلو الكلمة . و(التقوى) اتقاء الشرك ، وهو التوحيد .

﴿ وقالوا لولا ﴾ أي : هلَّا يأتينا بآية ، أي مما اقترحوا ، وقد سلف هذا مكررًا .

﴿ أولم تأتهم بينة ﴾ استفهام تقرير ، قيل: البينة ما في القرآن مما اشتملت عليه الصحف الأولى ، جاءهم بذلك رسول أمي يعرفون أميته ، وإنه لم يقرأ العلوم ولا جالس العلماء ، وكان ما أتى به من ذلك بينة على أنه رسول الله وهذا أشبه بوجه القراءة على الإضافة ، وقيل الخطاب لأهل الكتاب ، اقترحوا آيات كآيات موسى وعيسى ، فقيل لهم : ألم تأتكم بينة على صدقه ، وهي ما في صحفكم من نعته الذي عرفتموه به كما تعرفون أبناءكم ، وهذا وجه لقراءة من قرأ « بينة » بالتنوين ، وتكون "ما" بدلا من "بينة" ، وتأويل القراءتين على التحقيق متحد .

﴿ ولو أنا أهلكناهم ... ﴾ الآية عاد إلى خطاب المشركين ، والهاء في قوله : ﴿ من قبله ﴾ ضمير الرسول ، وقيل : ضمير القرآن ، وقيل: هو ... تقديره رسولا بكتاب ، ودلَّ عليه قوله : ﴿ فنتبع آياتك ﴾ أي: آيات كتابك .

﴿ من قبل أن نذل ﴾ أي بالنصر عليهم في الدنيا ، ﴿ ونخزي ﴾ أي بالتعذيب لهم في العقبى أي لقالوا ذلك في الآخرة .

﴿ قل كل متربص ... ﴾ الآية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون يتربصون بالمشركين إن لم يؤمنوا أن يصيبهم الله بعذاب من عنده أو بأيديهم ، وكان المشركون يتربصون بالرسول وبالمؤمنين الدوائر ، وقال ابن عباس : يريد كلكم يا معشر قريش متربص عن الإيمان . وقال غيره : أي النبي يتربص بهم العذاب ، وهم يتربصون به الموت.

﴿ فتربصوا ﴾ وعيد بلفظ الأمر .

﴿ فستعلمون ﴾ أي عند المكاشفة .

والصراط السوي قال ابن عباس وغيره: الدين المستقيم ، وقرأ ابن يعمر : ﴿ أصحاب الصراط السُوَّى ﴾ على وزن الحُسْنَى ونقيض معناها لكنه لم يُهْمزْ فقابل بذلك قوله ﴿ ومن اهتدى ﴾ ولا يريد غير معنى المهموز لكنه سهل الهمز فعيبت هذه القراءة عليه ؛ لأنها تقتضي تأنيث الصراط ولم يسمع تأنيثه ، والمعنى على القراءة على القراءة المعروفة فستعلمون من سلك الصراط المستقيم واهتدى أنحن أم أنتم ؟ والله أعلم .

[آخر سورة طه]

سورة ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾

(١٥٧/ ب) وهي مكية إلا ما يُنبَّه عليه في موضعه .

القراءات : إلى قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وحدهم قال : ﴿ربي يعلم القول﴾ بألف اتباعًا لمصحف أهل الكوفة . قرأ حفص عن عاصم وحده : ﴿إلا رجالًا نوحي إليهم ﴾ بالنون وكسر الحاء .

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وحدهم : ﴿ من رسول إلا نوحي ﴾ بالنون وكسر الحاء .

قرأ ابن كثير وحده ﴿ألم تر الذين كفروا﴾ وكذلك في المصحف المكي ، والباقون : ﴿أولم﴾ بواو .

وقرأ ابنُ عامر وحده : ﴿ ولا تُسْمِع الصُّم ﴾ بتاء مثناة مضمومة وكسر الميم ونصب الضم ، قيل : إنما يحسن هذا لو قال: إذا ما تنذرهم .

قرأ نافع وحده ﴿ مثقال ﴾ بالرفع هنا وفي لقمان .

قرأ قنبل عن ابن كثير وحده : ﴿ وضئاء ﴾ بهمزة مكان الياء .

والكسائي وحده : ﴿ جِذاذًا ﴾ بكسر الجيم .

قرأ ابن كثير وابن عامر وحدهما : ﴿ أفَّ لكم﴾ بفتح الفاء من غير تنوين . ونافع وحفص عن عاصم بالخفض والتنوين، والباقون يخفض بلا تنوين .

قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم وحدهما : ﴿ لتحصنكم ﴾ بالتاء المثناة ، وأبو بكر عن عاصم بالنون ، والباقون بالياء الخاتمة ، واتفقوا على تخفيف الصاد .

قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحدهما : ﴿ نجّي المؤمنين﴾ بنون واحدة مضمومة وجيم مشددة ن وياء ساكنة ، وسيأتي الكلام على ذلك .

الكلام على قول الله سبحانه :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ اقترب ... ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ (من الآية ١/ إلى الآية ٢٩).

﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ اقترب افتعل من القرب ، والناس : مشركو مكة(٥) وأمثالهم ، والحساب : الجزاء الكافي . وجزاء المشركين العذاب ؛ فلذلك قال ابن عباس : يريد عذابهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « من نوقش الحساب عذب » ، وقيل : المراد الساعة ، أي دنا وقت محاسبتهم على أعمالهم ، وإنما كان قريبًا لأن ما سلف من عمر الدنيا أكثر مما بقي .

وغفلتهم ذهولهم عن ذلك ، وإعراضهم توليهم عن الاستعداد له وعن تصديق الرسول .

﴿ ما يأتيهم من ذكر ... ﴾ الآية . الذكر القرآن اسم له ، وموعظة : ذكر وذكرى . و(المحدث) هو إتيان الذكر يحدث الله سبحانه أنزاله عليهم وقد . الذكر الوعظ يحدث الله لهم إسماعهم إياه كما قال : ﴿ أو يحدث لهم ذكرى ﴾ على أحد التأويلين ، والوعظ فعل الواعظ.

(١٥٨/ أ) والموعظة قوله والذي يحدثه الله لهم فعل لا كلام .

---

(٥) في الأصل : « مشركوا مكة » بألف بعد الواو .

وقوله تعالى : ﴿ وهم يلعبون ﴾ كانوا يتغامزون عند سماعه ويستهزؤن وهو في موضع الحال لقوله ﴿ لاهية قلوبهم ﴾ تقديره : استمعوه لاعبين لاهية قلوبهم ، والضمير الذي في قوله : ﴿ أسروا ﴾ هو ضمير الناس الذين اقترب لهم حسابهم ، و﴿الذين ظلموا ﴾ نعتهم ، وقيل : بدل منهم ، وقيل : بل هو مما قدم فيه ضمير الفاعلين ، ثم اظهروا بعده ، ومنه قول أحيحة بن الجلاح :

يلومونني في اشتراء النخيل قومي فكلهم يعزل

وقول غيره :

قصدوا لقومي وساروا سيرة كلفوا من سارها جهد التعب

وقولهم : ﴿ هل هذا إلا بشر ﴾ إشارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ أفتأتون السحر ﴾ أي أتقبلون منه القرآن ، ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ أي : تعلمون أنه سحرون ، وهذا لما رأوا أن مَن صدَّقه وقبله .... رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطاعه ، وآثره على الأهل والمال والولد .

﴿ قل ربي يعلم القول ﴾ يعني : نجواهم المذكورة ، وسواها من كل قول .

﴿ وهو السميع ﴾ أي لكل مسموع ، ﴿ العليم ﴾ أي بكل معلوم .

﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ... ﴾ الآية تضمنت اختلاقهم فيما وصفوا به القرآن ، وإن منهم من يقول : هو سحر ، ومن يقول : هو أحلام مختلطة يراها في منامه فيخبرهم بها ، ومن يقول : افتراه : أي تكذب به ، ومن يقول: هو شاعر ينظم هذا الكلام ، ثم طالبوه بآية مما اقترحوا ، وقد سلف هذا : قال ابن عباس : « صنفوا القرآن وجزؤه وكذبوه وكفروا به .

﴿ ما آمنت قبلهم ... ﴾ الآية ، أي : ما آمن مثلهم أهل قرية اقترحوا الآيات أفهؤلاء يؤمنون إذا جاءهم ما اقترحوا ، وقوله تعالى : ﴿أهلكناها ﴾ يعني أهلكنا أممًا لكفرهم بما اقترحوا من الآيات ثم جاءتهم آيات كثيرة ما اقترحوها رحمة من الله بهم ، وأعرضوا وقالوا سحر مستمر .

﴿ وما أرسلنا قبلك ... ﴾ الآية هي جواب لقولهم : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ .

وأهل الذكر هم أهل الكتاب ومؤمنوهم وكافروهم متفقون على أن الأنبياء رجال لا ملائكة .

﴿ وما جعلناهم جسدًا ... ﴾ الآية جواب لقولهم : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾.

قيل: الجسد ما الأرواح فيه ، وهو بعيد بل الجسد مركب الروح الذي يقوم به ولا تخصه هذه التسمية عند مفارقة الروح له (١٥٨/ ب)

ألا تسمع إلى قول ابن عباس : يريد وما جعلناهم جسدًا إلا ليأكلوا الطعام ، وقاله جماعة من أهل العربية والمعاني ، والمعنى على القول الأول ، وما جعلناهم أجسادًا لا أرواح فيها فيغنون عن الطعام وقوله وما كانوا خالدين ، أي : كانوا يموتون كغيرهم من البشر . وجسد في موضع أجساد التقدير وما جعلنا كل واحد منهم جسدًا ومثله ﴿ ثم يخرجكم طفلًا ﴾، ومثله : ﴿ فاجلدوهم ثمانين ﴾ أي فاجلدوا كل واحد منهم ثمانين جلدة .

﴿ ثم صدقناهم الوعد ... ﴾ الآية فيها البشارة للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن العاقبة لهم .

وقوله تعالى : ﴿ ومن نشاء ﴾ يعني المؤمنين ، ودل عليه قوله : ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ ، والوعد هو قوله تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ وقوله : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ وشبه ذلك .

﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابًا ... ﴾ الآية

الذكر الشرف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ والخطاب لقريش ، وقيل : بل للعرب كلهم ، وهو لقوله تعالى : ﴿ وأنه لذكر لك ولقومك ﴾ وقيل : أي فيه ما تذكرون به من المواعظ والحجج فهو عام ، وقال الحسن : أي فيه ما تحتاجون إليه من أمر دينكم ، وقوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ قال ابن عباس : يريد أفلا تعقلون ما فضلتكم به على غيركم . وقال غيره : أي أفلا تعقلون ما أنزلت في الكتاب.

﴿ وكم قصمنا ... ﴾ الآية . القصم في اللغة : كسر الشيء حتى يبين بعضه من بعض ، وهو في التفسير الإهلاك والعرب تقول إذا دعت على القوم بالهلاك : فض الله خذمتهم ، والخذمة الخلقة ، أي كسرها ، فاستعملوا الكسر في إهلاك القوم ، وكم يراد بها التكسير ، قال الشاعر :

كم عمة لك يا فلان وخالة فدعاء قد حلبت عليَّ عشاري

والظلم هنا الشرك ، وقيل: عناد الأنبياء وإذاؤهم .

﴿ وأنشأنا بعدها ﴾ أي بعد أهلها ، ولذلك قال : ﴿ قومًا آخرين ﴾ قال ابن عباس : يريد مدائن باليمن كانت كثيرة ، قال غيره : منها حضور وكانوا قتلوا نبيًا بعث إليهم فسلط عليهم بعض الملوك .

﴿ فلمَّا أحسوا بأسنا ﴾ بنزوله بساحتهم خرجوا فارين فقتلوا .

قال الكلبي: اسم النبي شعيب بن ذي مهدم ، واسم(٦) الملك بخت نصر ، قال غيره : ومنها بيت المقدس لَمَّا عتى أهلها على أنبيائهم ، وقتل ملكهم يحيى بن زكريا سلط عليهم بخت نصر فلمَّا أشرف عليهم بما لا قبل لهم به خرجوا هرَّابًا (١٥٩/ أ) ، وقيل : بل خرجوا لقتاله .

﴿ يركضون ﴾ : أي فرسانهم يركضون الخيل بأعقابهم ورجَّالتهم يركضون الأرض في عدوهم .

﴿ لا تركضوا ﴾ أضمر القول ، أي قيل لهم ذلك ، قيل: قالت لهم الملائكة ذلك عند هربهم سخرية منهم .

﴿ إلى ما أترفتم فيه ﴾ أي ما نعمتم به ، قال ابن عباس : يريد إلى ما كنتم تنعمون فيه .

﴿ ومساكنكم ﴾ أي ارجعوا إلى مساكنكم من القرية فكانوا بها فارقوه وفروا عنه مغتبطين معجبين به مستكبرين منه فهان عليهم عند خوف الهلكة .

وقوله ﴿ لعلكم تسألون ﴾ أي تسألون أموالكم التي أطغتكم فتفتدون بها ، وقيل : أي تسألون الإيمان كما سألتموه قبل ذلك ، فهو من الاستهزاء بهم ، قيل : كانت الملائكة تصدهم عن الجهات التي هربوا إليها وتحبسهم على أعدائهم ، وتقول لهم هذا الكلام ، فلـمَّا علموا أنهم منعوا الفرار وحرموا المتاب دعوا بالويل واعترفوا على أنفسهم بالظلم ، ولم يكفوا عن الدعوى حتى حصدهم أعداؤهم بالسيوف ، فخمدوا كما تخمد النار .

وقال ابن عباس : ﴿ دعواهم ﴾ : قولهم . قيل : حصدوا بالسيف كما يحصد الزرع وخمدوا بالإماتة كما تخمد النار ، وخمدت النار مثل طفئتهم يقولون : طفئ الرجل إذا مات .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض ﴾ ليس في القرآن ﴿ السماء والأرض ﴾ إلا هذه والتي في سورة ص، وما عداهما السماوات .

(٦) كلمة : « باسم » تكررت في الأصل .

قيل: اللعب ههنا العبث لقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا ﴾ فخلقهما سبحانه ليُعتبرَ بِهما فيعلم أن العبادة لا تصلح إلا لخالقهما ، ولغير ذلك مما هو به أعلم ، وقال ابن عباس : يريد ما خلقهما إلا لأجازي أوليائي، وأعذب أعدائي .

﴿ لو أرادنا **أن نتخذ لهوًا** ... ﴾ الآية سبب نزولها ما ذكره ... لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر المسيح وأمه عليهما السلام .

واللهو ما يلهى به ، سمي بالمصدر ولهذا سمي إتيان النساء لهوًا ، قال امرؤ القيس :

ألا زعمت بسباسة القوم أنني كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي

قال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي ومسروق وغيرهم : اللهو الزوجة . وقال غيرهم : اللهو الولد ، ورواه الكلبي عن ابن عباس .

وقوله تعالى : ﴿ **من لدنا** ﴾ أي من عندنا لا من عندهم ، ولأن مريم وابنها من البشر ومن أهل الأرض ، قال مسروق : أي من الحور العين ، وإرادة الله سبحانه لا تتعلق بهذا ؛ لأنه يستحيل اتصافه به غير أن من طرق المجادلة أن (١٥٩/ ب) تفرض وقوع المستحيل على وجه لتبين استحالته على وجه آخر ، لقوله : ﴿ إذًا لذهب كل إله بما خلق ...﴾ الآية . ثم تنزه عن ذلك قائلا ﴿ **إن كنا فاعلين** ﴾ أي: ما كنا فاعلين ، كقوله ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد** ﴾ وقوله : ﴿ **إن أدري لعله فتنة لكم** ﴾ وقوله : ﴿ **قل إن أدري أقريب ما توعدون** ﴾ ويجوز أن تكون إن شرطية ، قال القراء : وهو أشبه الوجهين بالعربية .

﴿ **بل نقذف بالحق** ... ﴾ الآيات ، الحق ما احتج به عليهم ، والباطل ما افتروه فدمغه بالحجة فزهق أي بطل، والأصل في الدمغ أنه إصابة الدماغ بالضرب وهو مذل مهلك ، وأصل الزهوق الخروج من الشيء بسرعة، ثم أخبر أن لهم الويل مما وصفوه سبحانه به ، والوصف يستعمل كثيرًا فيما تكذب به ، قال ابن عباس : ويل وادٍ في جهنم يستعيذ أهل النار منه .

﴿ **وله من في السماوات والأرض** ﴾ هذه إضافة الملك المنافي لكفية الزوجية وبعضية الولدية ومساواة الشركية .

وقوله : ﴿ **ومن عنده** ﴾ يعني الملائكة وهذه عندية الزلفة اختصاصًا وتكريمًا ويحسن أن يكون قوله : ﴿ **من عنده** ﴾ معطوفًا على قوله : ﴿ **من في السماوات** ﴾ ، ويحسن أن يكون ﴿ **ومن عنده** ﴾ جملة مستأنفة والخبر ﴿ **لا يستكبرون عن عبادته** ﴾ وهذا أولى ؛ لأن في الأرض من يستكبر عن عبادته كفرًا به و﴿ يستحسرون ﴾ في موضع يحسرون أي يتقطعون عن العمل إعياءً وملالا ، ويقول : حسر الدابة ، فهو حسير ، وحسرته أنا ، قال الراجز :

كم قد حسرنا من علاة عنس درفسة أو بازلٍ درفس(٧)

﴿ **يسبحون** ﴾ قيل : يصلون ، وقيل : هو قول : سبحان الله .

والفتور : الانقطاع عن العمل والأمر . قال كعب الحبر – ما معناه – : التسبيح لهم كالتنفس للبشر .

﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض** ﴾ أي من حجارة الأرض ومعادنها يعني الأصنام .

﴿ **هم ينشرون** ﴾ قال ابن عباس : يريد يخلقون ، وهو حسن جدًا ؛ لأنهم لا يقرون بإنشار الموتى ، فالإنشار ههنا إحياء الموات وبنى النطف .

(٧) انظر : لسان العرب مادة (درفس) .

﴿ **لو كان فيهما آلهة** ... ﴾ الآية فيه[8] الحجة على من أنكر الاستدلال بالأدلة[9] العقلية في التوحيد ونفي التشبيه ، فهذه دلالة عقلية محضة ، معناها أنه لو كان في السماوات والأرضين آلهة سوى الله سبحانه لانفرد كل إله بمخلوقاته ، ولغالب بعضهم بعضًا ففسد نظام العوالم ، ولم يتسق على طريقة واحدة ، ولما كان الشمس والقمر يجريان بحسبانٍ واحدٍ ، والجواري (١٦٠/ أ) الخنس ، والبروج من الكواكب وسائر النجوم لا تختلف أحوالها فيما خلقت له ولا تحل بمراكزها ومساراتها والسماء قائمة قيامًا لا ... والسحاب تجري بالماء النافع أهل الأرض في أوقات الحاجة إليه والحبوب والثمار تخرج على وتيرة واحدة والبشر كلهم وكل جنس من الحيوان على ما هم عليه من الصور المخصوصة بكل جنس وكان من المحال عقلا اتفاق الآلهة المشتركين على تدبير واحد لا يعارض بعضهم بعضًا فيه ، فعُلم توحد الإله سبحانه ثم أرزاق أهل الأرض لا توجد وتنمى إلا بماء السماء وحر الشمس وهبوب الرياح وبرد الليل ونور القمر والكواكب فلو كان إله السماء غير إله الأرض لم يسخر ما فيها من مخلوقاته لخلق غيره سرمدًا ولما استحال جريان الأمور المشتركة بين الملوك والشركاء ممن سواهم على مبدأ واحد من غير اختلال معارضة ولا إبطال مناقضة لزم القضاء بمثل ذلك فيما ادعاه المبطلون من الآلهة المشتركة في المخلوقات .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ آلهة إلا الله ﴾ : يريد غير الله . واتفق أهل العربية على أن إلا ليست للاستثناء ههنا بل هي بمعنى غير وهي صفة للإله ولهذا جاء ما بعدها مرفوعًا كالذي قبلها ، وأنشد الزجاج :

وكل أخ مفارقه أخوه ... لعمر(١٠) أبيك إلا الفرقدان

ثم قال : المعنى : كل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه .

﴿ لا يسأل عما يفعل ... ﴾ الآية . أي لا يسأل عما يقضيه في خلقه وخلقه يسألون عن أعمالهم ، وهذا لأنه سبحانه حاكم غير محكوم عليه فمن سأله عما يفعل فقد أقام نفسه بمقام الشريك له ؛ لأن الآية نزلت في تأكيد التوحيد له والتنزه عن الشريك فإنه سبحانه احتج على التوحيد بالآية التي قبلها وتم ذلك بقوله : ﴿ **فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يسأل عما يفعل** ﴾ أي هو منفرد بالألوهية والتدبير ولو كان له شريك لسأله عن فعله سؤال الاعتراض عليه كما يسأل الشريك شريكه ثم طالبهم سبحانه بالدلالة على ما انتحلوه من الشرك قائلًا : ﴿ **قل هاتوا برهانكم** ﴾ أي حجتكم على أن مع الله آلهة .

وقال ابن عباس : يريد شهداءكم . ثم دلهم على مظنة البرهان وهي الكتب المنزلة أي انظروا هل تجدون فيما أنزل من الكتب أن لله شريكًا ثم أكد البيان بقوله تعالى :

﴿ وما **أرسلنا من قبلك من رسول** ... ﴾ الآية . أي كل رسول فإنما أتى بالتوحيد وقيل : ﴿ ذكر من معي وذكر من قبلي ﴾ يعني به القرآن ، فيه خبر من في عصره من الأمم ، وقيل : من معه أي على دينه ، وخبر من تقدمه من الأمم وأنبيائهم وليس (١٦٠/ ب) فيه برهان على الشرك ، وقيل : أي فيه العلم السالف وعلم آخر مستأنف وليس في شيء من ذلك كله ما يدل على صدقهم في الشرك .

ثم وصفهم بالإعراض عن الحق لجهلهم به ، ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ... ﴾ الآية هي بيان للآية السالفة ، وقوله : ﴿ **فاعبدون** ﴾ قال ابن عباس : يريد فأطيعون . وقال غيره : يريد فوحدون . أي أمروا بأن يقولوا ذلك ويدعوا إليه.

---

(٨) كذا في الأصل .

(٩) في الأصل : «بالأدلية ».

(١٠) في الأصل : « لعمرو » .

﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا** ... ﴾ الآية . قال ابن عباس وغيره يعني الملائكة .

قال الله سبحانه : ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾ أي بل الملائكة عباد . قال ابن عباس : اصطفاهم ، وقال غيره : أكرمهم بطاعته ، وملازمة ذكره ، وقيل : أي أكرمهم بحسم الشهوات عنهم .

﴿ **لا يسبقونه بالقول** ... ﴾ الآية قيل: أي لا يقولون إلا ما أمرتهم بقوله .

﴿ **وهم بأمره يعملون** ﴾ أي ولا يعملون إلا ما أمرتهم بعمله .

﴿ **يعلم ما بين أيديهم** ... ﴾ الآية قد تكرر تفسير صدرها .

﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ كان المشركون يزعمون أن الملائكة شفعاؤهم عند الله فأعلمهم أنهم لا يشفعون إلا للموحدين . قال ابن عباس : يريد لمن قال : لا إله إلا الله .

﴿ **وهم من خشيته** ﴾ أي من خوفه مشفقون . أي من عذابه .

أخبر سبحانه أنهم مع كونهم لا يقولون ولا يعملون إلا ما أمرهم به مشفقون من أن يعذبهم . قال ابن عباس: يشفقون من عذابه . ففيه دليل على أن الله سبحانه لا يجب عليه أن ينجي المطيعين من عذابه .

﴿ **ومن يقل منهم** ... ﴾ الآية . كان المشركون يزعمون أن الملائكة راضون عنهم بعبادتهم لهم ، فقيل لهم : لو كانوا قالوا ذلك لأدخلوا النار ، هذا بعد أن برأهم من ذلك بقوله : ﴿ **لا يسبقونه بالقول** ﴾ ، وقيل : المراد إبليس وكان من الملائكة ، فهو الذي قال ذلك ودعا إليه .

الكلام على قول الله سبحانه : ﴿ **أولم ير الذين كفروا** ... ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ **ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ [من الآية ٣٠ إلى الآية ٤٦]

الرتق المرتوق مصدر سمي به كالغزل والنسيج فلم يثن لذلك ، ووقع التوحد اللفظي على الأرضين ، فقيل أرض لأنها جنس واحد فأما السماوات فكل سماء منها جنس واتفقت في كونها سقوفًا ولعل هذا هو المقتضي لوقوع لفظ التوحيد عليها في هذه السورة وفي ص ، ومنه قوله تعال : ﴿ **كانتا** ﴾ ولم يقل : كُنَّ التقدير : كانت السماوات والأرض رتقًا ، وكانت الأرضون رتقًا ، فهو مما أخبر فيه عن جماعين كالإخبار عن اثنين ومنه قول الشاعر :

ألم يحزنك أن حبال قيس ... وتغلب قد تباينتا انقطاعا

وقال أبو عبيدة : هو مما (١٦١/ أ) أنزل فيه واحد مع جماعة وأوقعوا الخبر عنهما في اثنين وأنشد :

إن المنية والحتوف كلاهما ... يوفي المخارم يرقبان سوادي[١١]

قيل: كانت السماوات سماء والأرضين أرضًا ففتق الله من كل واحدة سبعًا ، وقيل: كان الزبد الذي خلقت منه الأرضون والبخار الذي خلقت منه السماوات ملتصقين ففتقهما الله تعالى بالريح ، ثم خلق من السقف سبعًا ومن الأرض مثلهن ، وقال ابن عباس – ما معناه – : كانت السماء لا تمطر والأرض لا تثبت ففتق الله السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات . والرتق : الشد ، وما شددت به شيئًا فهو رتقة له .

(١١) البيت في الأغاني (١٣/ ١٩) .

﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾ جعلنا بمعنى خلقنا فكل شيء في الأرض مخلوق من الماء ، قال الله سبحانه : ﴿ **والله خلق كل دابة من ماء** ﴾ ودخل هذا العموم التخصيص بقوله تعالى : ﴿ **والجان خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾ .

وقيل : الماء هاهنا نطفة التناسل فيكون اللفظ محمولًا على الأغلب الأكثر ، وقيل: أحيينا بالماء كل حيوان ونبات .

﴿ **أفلا يؤمنون** ﴾ أي : أفلا يصدقون بتوحيد الله الذي فعل هذا.

﴿ **وجعلنا في الأرض رواسي** ... ﴾ قد سلف تفسيرها مكررًا ومعنى ﴿ **أن تميد** ﴾ لئلا تميدأو كراهة أن تميد . قال ابن عباس : بسطها الله على الماء فمادت كما تميد السفينة فأرساها بالجبال .

والفجاج والشعاب : المسالك بين الجبال ، وإنما قال : سبلًا لأنه أراد فجاجًا مسلوكة فرب فج غير مسلوك فيه .

﴿ **وجعلنا السماء سقفًا** ﴾ أي لعمار الأرض وعمار الجو ، وكل سماء فهي سقف لمن استفل عنها ، والمحفوظ : المحروس ، حُرست بالملائكة وبالشهب وبما الله أعلم به ، وقيل: حفظها أمسكها عن الوقوع والزوال . وقيل: حفظها من الفساد والتغير إلى يوم القيامة.

﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ يعني المشركين المعرضين عن الاعتبار بآيات السماء.

﴿ وهو الذي خلق الليل ... ﴾ الآية الفلك : مدار النجوم ومسبحها . قال الحسن : هو طاحونه كهيئة فلكة المغزل فذكر تشبيهين ، وإنما يعني الاستدارة في الحركة ، قيل: الفلك يدور بالنجوم فهي سائرة بسيره ، وقال الكلبي : العالم باستدارة السماء ، وأظنه يعني استدارتها خلقًا لا حركة . وقوله : ﴿ **كل في فلك** ﴾ قال ابن عباس : يريد كل ذلك في الفلك . والسبح في الماء معروف ومن العدو السهل السريع سبح ، وإذا مد الفرس قوائمه في عدوه ثم ضمها ضمًا شديدًا فقد سبح ، وجاء قوله تعالى : ﴿ **يسبحون** ﴾ على مثل الخبر عمن يعقل كما قال الشاعر (١٦١/ ب) :

تمززتها والديك يدعو صباحه   إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا

﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد** ... ﴾ الآيتين فيها إيآس البشر من البقاء في الدار الدنيا وتنبيه بعضهم على التأسي ببعض في ذلك ، وتقييد الشامتين بالموتى .

وكان الملأ من قريش يتمنون موته ، ويقولون : لو مات لبطل أمره وهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ **أفإن مت فهم الخالدون** ﴾ قال ابن عباس : يريد : أفهم لا يموتون ، وهو استفهام إنكار ، وكان كثير من المسلمين قد شدههم موت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية وأختها وهي قوله تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ... ﴾ منهم عمر رضي الله عنه ، وكان أبو بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم غائبًا عنه فلما بلغه ذلك أتى إلى بيت عائشة فاستأذن ودخل ، قالت : عائشة فكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع فمه بين عينيه ووضع يديه على صدغيه ، وقال: وانبياه واخليلاه واصفياه ، صدق الله ورسوله : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت** ﴾ ثم خرج إلى الناس فخطبهم ، قال أبو هريرة : دخل أبو بكر المسجد وعمر يكلم الناس فقال له : على رسلك يا عمر أنصت ، فأبى إلا أن يتكلم فلما رأه أبو بكر يأبى إلا أن يتكلم أقبل على الناس ، فلما سمعوا كلامه أقبلوا عليه ، وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ... ﴾ إلى قوله : ﴿ **وسيجزي الله الشاكرين**﴾ قال : فكأنا لن نعلم أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر فأخذها الناس عن أبي بكر .

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلا هذه الآية فعقرت[١٢] ووقعت على الأرض ما تحملني رجلاي وعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات .

﴿ كل نفس ﴾ قيل : يعني نفوس البشر المقدم ذكرهم ، وعلم موت الملائكة بقوله تعالى : ﴿ **فصعق من في السماوات ومن في الأرض**﴾ ، وقيل – وهو الظاهر – : أنه شامل لكل نفس من الخلائق أجمعين .

﴿ ونبلوكم ﴾ قال ابن عباس : يريد اختبارًا مني لكم ، وعنه أيضًا قال : نبتليكم بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام ، والمعنى أنه يعاملهم بالسراء والضراء معاملة المختبر ليظهر عليهم ما علم كونه منهم .

روي لنا حديث عمران بن الحصين قال: إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما (١٦٢/ ب) يستقبلون به مما[١٣] أتاهم به نبيهم ، وثبتت الحجة عليهم . وفي لفظ : فاتخذت عليهم به الحجة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم ، وتصديق ذلك في كتاب الله : ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ وفي لفظ أنهما قالا : ففيم العمل ؟ قال : من خلقه الله لأحدى المنزلتين ألهمه لها ، وتصديق ذلك في كتاب الله .

﴿ **وإذا رآك الذين كفروا** ﴾ قيل: سبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بملإٍ من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام فقال أبو جهل : هذا نبي بني عبد مناف الذي يذكر آلهتكم ، فقال له أبو سفيان : ما إنكارك أن يكون في بني عبد مناف نبي ، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم قولهما فقال لأبي جهل : « ما أراك منتهيًا حتى ينزل بك ما أنزل بعمك الوليد بن المغيرة ، ثم قال لأبي سفيان واما أنت يا أبا سفيان فإنما قلت الذي قلت حمية ، يعني انه غضب عند ذكر أبي جهل لبني عبد مناف لأن أبا [سفيان منهم][١٤] فقال كلمته حمية لا جنوحًا إلى الحق فلم يقبلها النبي صلى الله عليه وسلم منه ولا داهنه من أجلها ، وكان ابن عباس يعد المستهزئين بالنبي صلى الله عليه وسلم خمسة : الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس السهمي ، والعاص بن وائل السهمي ، والوليد بن المغيرة المخزومي .

وإنما كان يعد سادتهم وغيرهم يعدهم أكثر من هذا .

وقوله تعالى : ﴿ **هزوًا** ﴾ في موضع مهزوًا به .

وقوله : ﴿ **يذكر آلهتكم** ﴾ أي بالعيب لها فهو مختصر لفهم السامع .

وقوله : ﴿ **وهم بذكر الرحمن هم كافرون** ﴾ كقولهم : ﴿ **وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا** ﴾ [الفرقان / آية ٦٠] وصفهم سبحانه بأنهم يغضبهم عيب الأصنام ويرضيهم الكفر بالرحمن .

﴿ **خلق الإنسان من عجل** ... ﴾ الآية ، قيل : المراد بالإنسان النضر بن الحارث العبدري وسواه ممن كان يستعجل بالعذاب فالآيات على هذا ما قاله ابن عباس : القتل ببدر يعني والله أعلم ما شاهدوه من الملائكة وفعلها بهم أو يعني أن ما أصابهم ببدر كان من آيات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه تلا عليهم قول الله سبحانه : ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾ قبل وقعة بدر بسنين ، وقيل:

(١٢) كتبت في متن الكتاب : «ففعرت» وكتب في الهامش : « صوابه فعقرت » .

(١٣) في الأصل : « من » والمثبت من صحيح مسلم الحديث رقم (٢٦٥٠) .

(١٤) ما بين المعكوفين مكانه سواد في صورة المخطوط يدل عليه السياق .

الإنسان هاهنا آدم ذكر ما طبع عليه من العجلة الموجودة في ولده وظهور العجلة عليه كان حين أراد النهوض قبل أن تعم الروح جميع بدنه وفخذاه فما استقبل عنهما طين لم يدخله الروح فيعود لحمًا ودمًا وعظامًا ذهب إلى هذا قتادة وابن جبير وعكرمة والسدي (١٦٢/ ب) ومقاتل ، وقيل : إنه مدَّ يدَه إلى بعض ثمار الجنة قبل أن تعم الروح جسده . والمراد بقوله : ﴿ **خلق الإنسان من عجل**﴾ الإخبار عن كثرة عجلته وغلبتها على أخلاقه فهو يستعجل بالخير وبالشر فهو لفظ أريد به المبالغة كما تقول – إن اشتد حرصه – : إنما خلقت من حرص ، أي طبعت عليه ، وهذه الآية تفسيرها قوله تعالى : ﴿ **وكان الإنسان عجولا** ﴾ ومثله : ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف** ﴾ أي ضعفاء ، والعجل مذكر العجلة وهما سواء ، وقال أبو عبيدة : هو من المقلوب ، أي خلق العجل من الإنسان ومثله : ﴿ **ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة** ﴾ والعصبة هي التي تنوء بالمفاتيح ، وقيل : العجل : الطين ، أي خلق الإنسان من طين ؛ يصفه بالضعف ، أو يردعه عن الكبر . قال أبو الهذيل ناصرًا لهذا القول : وقد قال الشماخ في الجاهلية :

النبع منبته بالصخر ضاحية ... والنخل تنبت[١٥] بين الماء والعجل

﴿ **ويقولون متى هذا الوعد** ... ﴾ الآية بين استعجالهم بالعذاب وأفهم استهزاءهم بقولهم : ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ ، وقال ابن عباس : يريد وعد القيامة .

﴿ لو يعلم الذين كفروا ... ﴾ الآيتين الحين هاهنا لا يراد به مدة من الزمان بل هو بمعنى الوقت والساعة ، قال ابن عباس : يريد ساعة يدخلون جهنم ، وإنما لم يكفوا عن وجوههم النار لأن أيديهم مغلولة ولو أطلقت لوقوها بها فذلك كقول الله سبحانه : ﴿ **أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب** ﴾ .

﴿ **ولا عن ظهورهم** ﴾ لإحاطتها بهم. ﴿ **بل تأتيهم** ﴾ يعني الساعة المعبر عنها بلفظ الحق ، والنصر المنع ، والإنظار التأخير ، وجواب لو معلوم تقديره : لو علموا لما استعجلوا به .

﴿ **ولقد استهزئ** ﴾ الآية . فيها الدعاء إلى التأسي بالمرسلين والبشارة بتعذيب المستهزئين الساخرين ، وفي قوله : ﴿ **منهم** ﴾ ضمير الرسل .

﴿ **قل من يكلؤكم** ... ﴾ الآيتين . الكلأة الحفظ والحراسة ، قال ابن عباس : يمنعكم من الرحمن أي من عذابه ، ومثله : ﴿ **من ينصرني من الله** ﴾ والذكر القرآن أعرضوا عن قبوله .

﴿ **أم لهم آلهة تمنعهم** ﴾ استفهام إنكار ، وتقديره أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم ثم وصف آلهتهم بالعجز فقال : ﴿ **لا يستطيعون نصر أنفسهم** ﴾ أي منعها ، قيل الضمير في أنفسهم لآلهتهم ، وقيل : لعابديها ، وكذلك الضمير في قوله : ﴿ **هم** ﴾ . وقال ابن عباس : يريد أن أولياء الله لا ينصرون أعداء الله . يعني أن الملائكة لا تنصر المشركين ، والملائكة أيضًا لا يستطيعون نصر أنفسهم من الله ، ولا يجيرهم منه أحد ، ويسمى المجير صاحبًا ؛ لأنه يصحب جاره ، وقيل : يصحبون (١٦٣/ أ) يجارون . وقيل : يحفظون . ومنه الحديث : « اللهم أنت الصاحب في السفر » أي: الحافظ .

﴿ بل متعتنا ... ﴾ الآية هؤلاء : إشارة إلى كفار قريش . قال بن عباس : يريد متعت أهل مكة حتى طال عليهم الأَمد .

أخبر سبحانه أنهم اغتروا بمهلة البقاء والإستمتاع بالنعماء ثم دعاهم إلى الاعتبار بالمهلكين من أهل الأرض والظاهر أن الآية مدنية . قال بن عباس في قوله تعالى : ﴿ نأتي الأرض ننقصها﴾ يريد نفتح عليك يا محمد أطراف الأرض .

(١٥) في الأصل : تلبث ، وما أثبتناه موافق لما في لسان العرب مادة (ع ج ل).

﴿ أفهم الغالبون ﴾ قال : يريد بل الظفر والغلبة، وقال الضحاك والحسن ومجاهد وغيرهم : ما معناه هو ظهور النبي صلى الله عليه وسلم على ما حول مكة من القرى وأحياء العرب أرضًا أرضًا وقومًا قومًا . وقيل : نقصُ الأَرضِ خرابُ بعضها . وقيل : موت العلماء والصلحاء ، أي : ينقص أهلها وليس هذا موضعه .

﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ... ﴾ الآية أي : بما يوحى إليَّ من القرآن ثم (...)[16] لإعراضهم عن قبول الإنذار بالصم المحجوبين بالصمم عن سماع الدعاء .

﴿ولئن مستهم نفحة .. . ﴾ الآية النفح يستعمل في الإصابة بالخير وبالشر فمن الإصابة بالخير نفحات رحمة الله وتسميتهم المعطاء نفاحا ومن الإصابة بالشر ما تضمنته هذه الآية ولا يستعمل النفح في ما كثر وعظم ولذلك قالوا : نفح[17] الدابة إذا ضرب بمقدم حافره ضَرْبًا خفيفًا . قال ابن عباس : طرف من عذاب ربك ، يريد الجوع الذي نزل بهم .

(١٦) في الأصل سواد بمقدار كلمة .

(١٧) كذا في الأصل والجادة : نفحت ، لأن الدابة مؤنث حقيقي يؤنث معه الفعل .

الكلام على قول الله سبحانه : ﴿ ونضع الموازين ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ فسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾

ذُكِرت الموازين بلفظ الجمع لتكرر الوزن والقسط العدل وهو نعت لها أي ذوات القسط ما تقول: فلان عدل أي ذو عدلٍ . وقيل: القسط بدل من الموازين ، والموازين كناية عن العدل وهذا ينسب إلى بعضِ المفسرين منَ التابعيْن وقد وَصَفَ الله سبحانه المَوازينَ بالثِقل وبالخِفّة وصَرَّحَ النبيُ صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة بذكرِ الكفتين ووَضع الأعمال فيهَا وأن الميزَانَ طبَاقُ السَّموَاتِ والأرْض وأن الصنج مثاقيل الذرّ والخردل والكلامُ لحقيقَتِهِ فَلا يُعدَلُ عَنهَا إلى المَجازِ إلاّ ببرْهَانٍ جَليّ فأمَا مَن قال: الأعمال (١٦٣/ ب) أعْراضٌ فيَستَحيل وَزْنُهَا فإنَه ضَاقَ عطنه عَن الإيمانِ بغَيْب يُخَالِفُ الشَّهادَة ثم ليسَ كلما يُجازَى عَليْه المكلَفُ إعْراضًا فقَدْ يتصدق بالمالِ وقَدْ يغصِبُ المَالَ وَقَدْ يعتق الرَّقبة وَلاَ يبعد أنْ تُوْضَعَ فِي مِيزانِهِ وَقَدْ جاء في الأثرِ أنَّ صَلاتَهُ عَلى النّبي صلى الله عليه وسلم تكتبُ في بطاقةٍ وتوضَع البِطاقة في كفّة حسَنَاتِه وَلا بعدَ في مَا قالَ العُلَماء مِن أن الحَسناتِ تُصَوَّر صُورًا حَسنةً وَالسيِّئاتِ تُصَوَّر صوَرًا قبيحَةً وَقالهُ ابنُ عباسٍ بَل شهَد لهُ الحديث المَقْبُول النبوي : « أنّ المؤمن يلقاهُ عَملهُ حينَ ينشرَ في أحْسَنِ صُوْرةٍ وإن الكافر يلقاه عمَلهُ في أقبَح صُوْرَةٍ » ، « وَأنّ القُرآن يلقى صَاحبَهُ حينَ يُشَقّ عَنهُ قبرُهُ كالرجُل السَاحب» يَعني بالقرآن القراءة؟ في أشباهٍ لهذا كثيرة واللهُ أعلمُ .

وَمثقالُ الشيء مَا ضَاهَاهُ في وزنه وَتقُول مثقالُ هذا الشيء كذا وكذا أي وزْنهُ وفيْه إيجاز تقديرُهُ وإن كانَ العَمل مثقَال حَبَّةٍ وَالعَمل المُقَدَّر هَاهُنا هُوَ الشّيء المذكور أولا في قَولِهِ تعَالَى: ﴿ فلا تُظلم نَفسٌ شيئًا ﴾ وقيل : أيْ وإنَ كانَ الظلامة دَلّ عليْه قَولُه : ﴿ فلا تظلَم نَفسٌ شيئًا ﴾ قيل : ولأنّ المُنَاقشة إنَما تكُون في الظلامات وَالأولُ أوْلَى بِالحقّ إن شَاء اللهُ .

وَالهاء في قَوله : ﴿ بها ﴾ ضَميرُ الحَبّة أُقِيمَتْ مَقَام مَا يُوزنُ بهَا .

﴿ وكفَى بنَا حَاسِبِيْنَ ﴾ قيلَ : أيْ مُحْصِيْنَ لأنَ الحَاسِب مُحْص . وَقيل : أيْ كفَى بنا في سُرْعَةِ المحاسبةِ . وقَال ابن عَباس : كفَى بعلميْ وَدِقّةَ حِسَابي . وَقَالَ أيضًا : يريدُ عالمين مُحصينَ . وقيْل لبعَض أئمة الهُدى كيفَ يُحاسِبُ اللهُ الناسَ عَلى كثرتهم ؟ فقالَ : كما يرْزقهُم على كثرتهم . قال حُذَيفَة بن اليمان : يقوُلُ الله عزَ وَجَل لجبريل زن بينَهُم ورد من بَعضهم عَلى بعْض قال فيرد عَلى المَظلُوم منَ الظالم مَا وجدَ لَهُ منْ حسَنَة فإن لم تكن لهُ حسَنة أُخِذَ من سيّئاتِ المظلُوم فيرد على الظالم فيرجع وعليْه مثل الجَبَل .

﴿ وَلقَد آتينا مُوْسى وَهَارُونَ الفُرقَانَ ... ﴾ الآيتَين الفُرْقان : مَصْدَرٌ سُميَ بِهِ تَقولُ فَرقت فرقًا وفرقانًا وتَفريقك فرْقانٌ وما فَرقت به بَينَ الشَّيئَين فرقان ، وكتابُ الله فرقان لتَفريقهِ بَيْنَ الحق والباطل وبينَ الحلاَل وَالحرَام . وَقال ابن عَبّاس ، ومجاهدُ ، وَقتادَة ، والجمهور : أنّ الفُرقان هَاهُنَا التوراة . وَعن ابن عَباس قال : فَرَّقَ اللهُ فيها الحِكَم وَالشَرائع وَالجمهُور على مَا قدَّمتُ ، وَأكثرُهُم على أنّ الضيَاء والذّكر ما اشتملَتْ عَلَيه منَ الهُدَى والمواعِظِ إلا أنّ قائلا قالَ في الذِّكرِ : أي يذكرونَه فيعملونَ به . وقيل : الفرقان (١٦٤/ أ) إبطال سحر السحرة بالآية في العصا فإنه فرَّق بها بين الحق والباطل وبين الآية المعجزة وبين السحر والضياء والتوراة كما قال فيها هدى ونور. والذكر: الموعظة ، وقيل : الشرف والفضيلة بأن كلمه تكليمًا . وقيل : الضياء آية اليد، والفرقان سائر الآيات التسع، والذكر: التوراة، وأهل العربية مختلفون في صحة الحكم بزيادة الواو كما هنا في قوله : ﴿وضياء﴾ .

والمتقون : الذين اتقوا الشرك ثم نعتهم بالخشية له بظهر الغيب إذا خلوا وبالإشفاق من الساعة لأهوالها ووعيدها .

﴿ وهذا ذكر ﴾ هو القرآن ﴿ مبارك ﴾ أي كثير البركة وهي الخير الملازم فهو مبارك فيه لأهله ومبارك به عليهم .

﴿ أفأنتم ﴾ إستفهام إنكار على من أنكر أنه من عند الله .

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ﴾ أي من قبل موسى وهارون آتاه الله الهدى . وقيل : أي هديناه في أول أمره . قال ابن عباس وغيره : يريد في صغره . قيل : وهو في السَّرب؟ أعطي الإيمان .

﴿ وكنا به عالمين ﴾ أي أعطيناه ذلك على علم منا بأنه أهل له . وقال ابن عباس : يريد للرشد خاصة . وقيل : هو مختصر تقديره وكنا بطاعته لنا عالمين .

﴿ إذ قال لأبيه وقومه ﴾ هذا تعيين لوقت إعطائه الرشد ، وقيل: بل لوقت إظهاره ما أعطاه الله من الهدى فإنه عقب الهداية إلى الحق بالإنكار للباطل، والتماثيل هاهنا الأصنام التي كانوا يعبدونها ، وكل ما صنعه البشر من الصور مثالا لخلق من خلق الله فهو تمثال والتاء زائدة، والمحرم فعله من ذلك ما صنع مثالًا لذي روح .

روى لنا أن ابن عمر قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الذين يصنعون الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم ».

وإن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ »[١٨]، وأنه قال لرجل قال له : إني أصور هذه الصور فأفتني فيها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس فتعذبه في جهنم»[١٩] ثم قال : إن كنت لابد فاعلا فاصنع الشجر ومالا نفس له .

هذا حكم عملها وأما حكم اتخاذها فإن الحَرميين رضي الله عنهما لم يحظرا اتخاذها في الثياب والبسط التي يمتهن . وقال ابن وهب : رأيت على باب مالك سترًا معلقًا فيه ديكة مصورة .

(١٦٤/ ب) ومالك رحمه الله يروي حديث عائشة رضي الله عنها : أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير فلما رآها النبي صلى الله عليه وسلم قام على الباب فلم يدخل فعرفت في وجهه الكراهية وقالت : يارسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله فماذا أذنبت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ما هذه النمرقة ؟ » فقالت : اشتريتها لك لتقعد عليها وتتوسدها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون بها ، ويقال : أحيوا ما خلقتم » ، ثم قال : «إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة ». فحمل مالك رحمه الله هذا على التنزه عن ترك الأفضل وعمل بحديث رواه عن أبي النضر عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أنه دخل على أبي طلحة الأنصاري يعوده قال : فوجدنا عنده سهل بن حنيف قال : فدعا أبو طلحة إنسانًا فنزع نَمَطًا؟ تحته فقال له سهل ابن حنيف : لم تنزعه ؟ قال : لأن فيه تصاوير وقد قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد علمت ، فقال سهل : ألم يقل: «إلا ما كان رَقْمًا في ثوب» قال : بلى ولكنه أطيب لنفسي.

وقوله تعالى : ﴿ أنتم لها عاكفون ﴾ قال ابن عباس : مقيمون تعبدونها من دون الله فاحتجوا بتقليد آبائهم في عبادتها فأخبرهم أنهم ومن اقتدوا به في ذلك في ضلال ظاهر واختلف العلماء في من علم أن توحيده تقليدي محض وهو مصمم عليه هل حصل له توحيد عموم الموحدين حصولا حقا أم لا ؟ وتحقيق الكلام في هذا أن يقال هل أدى ما كلفه من ذلك أم لا هذا مع اتفاق أهل الحق أنه في الأحكام الشرعية لخصوص الموحدين والقول المرضي في هذا إن شاء الله أنه إن كان متأهلا لتحصيل التوحيد من طريق النظر والإستدلال بما قسم له من موهبة العقل وسداد الفكر فما أدى ما كلفه ولا عذر له فيما يدعيه من السلامة من الوساوس المردية لأن الثقة باستمرار ذلك لا يحصل بل لا يرجوها موثوق بعقله لاسيما مع فشو دعوات الضُلال ودؤبِ دعاتهم على استفساد الجهال وإن لم يتأهل لما ذكرناه فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها غير أنه يلزمه التحيز إلى صف المشهورين بالعلم عند العلماء وعند طلبة العلم لا عند العامة الحشو

(١٨)
(١٩)

الذين هم اتباع كل ناعق فيتحيز إلى صفهم ويسألهم عن ما نزل به ويعتصم بهم من دعوات الغواة ولـن يحـصل عـلى ذلـك حتـى يجتنـب صحبة كل عامي متحيز عن العلماء غاض منهم .

﴿ قالوا أجئتنا بالحق ﴾ أي بالجد دل عليه قولهم ﴿ أم أنت من اللاعبين ﴾ (١٦٥/ أ) فأعلمهم أنه جاء بالحق قائلًا: ﴿ بل ربكـم رب السموات والأرض .. ﴾ الآية وفيها مع الدعوة إلى التوحيد الدلالة عليه لأنهم ما كانوا يدعون أن أصنامهم فطرت الـسموات والأرض بل كانوا يعلمون أن أصنامهم مصنوعة من صخور الأرض ومعادنها وشجرها ولذلك قال لهم : ﴿ أتعبدون ما تنحتون﴾.

﴿ وأنا على ذلكم ﴾ أي على ما ذكر من التوحيد لله وأنه فاطر السموات والأرض . ﴿ من الشاهدين﴾ مـن للتبعـيض أعلمهـم أنـه أحد الشاهدين بذلك . وقال ابن عباس : يريد شهيدًا له بما شهد به لنفسه أنه لا إلـه غـيره . ﴿ وتـالله لأكيـدن أصـنامكم ... ﴾ الآيتـين الكائد هو مدخل الشر على من يكيده في خفاء أي من حيث لا يشعر كالماكر فإبراهيم عليه السلام قصد كبير الأصنام في حال غيبة قوامها الذين يحفظونها . وقيل : أراد لأكيدنكم في أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . قال ابن عباس وغيره – واللفظ له – : يريد حـين تنـصرفون عنها . واتفقوا على انصرافهم عنها كان من أجل عيد لهم .

﴿ فجعلهم جذاذا﴾ الجذ بالذال الموسومة أبلغ من الجد بالدال الغفل فهو قطع مبالغ فيه والجذاذ بضم الميم بنيـة المبالغـة كخفـاف ورقاق والجذاذ بالكسر جمع جذيذ كظريف وظراف وهو أيضًا مصدر المفاعلة وهم يقيمون الفعـل بـين الفاعـل والمفعـول كالفعـل بـين الفاعلين أي كالفعلين المتماثلين من فاعلين . ﴿ إلا كبيرًا لهم ﴾ إستثناء من موجب فلذلك انتصب . قيل : كبيرًا للأصنام أي كبيرًا منهـا . وقيل : كبيرًا لعبادها أي تكبره وتعظمه أكثر من إكبارها لسواه .

﴿ لعلهم﴾ يعني عابدي الأصنام . ﴿ إليه ﴾ أي إلى الكبير . ﴿يرجعون ﴾ أي يرجعون في التهمة بكسر الأصنام وكان جعـل الفـأس الذي كسر به الأصنام على الصنم الكبير وقول من قال لعلهم يرجعون إلى عبادته أو إلى التعلل بوجوده سليما باطل ؛ لأنه من العون عـلى عبادة غير الله لكن أبقاه لما ذكرناه والله أعلم .

﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا﴾ أي التكسير فنم على إبراهيم عليه السلام من سمعه يقول: وتالله لأكيدن أصنامكم . وقيل : كان يكثـر عيب آلهتهم فاتهموه بكسرها لذلك وهو معنى قوله تعالى : ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم﴾ أي يعيبهم ومثله قولـه تعـالى : ﴿ أهـذا الـذي يذكر آلهتكم ﴾.

﴿ قالوا فأتوا به ... ﴾ الآيتين القائل هذا الذي أخبر الله تعالى به عنه هو نمرود وجعل قوله كقول الجماعة لأنه متبـوع مطـاع أو لأنـه قال عن مشاورة وزرائه .

﴿ لعلهم يشهدون ﴾ لم يأخذه بالتهمة بل طلب أن يحضر فيراه (١٦٥/ ب) الناس ليشهدوا عليـه جـاء معنـاه عـن الحـسن ، وقتـادة والسدي وهذا تؤيد أنها كانت تهمة له أتهم بها لأجل عيبه لآلهتهم . وقيل : أي ليشهدوا عليه وهو حاضر بقوله وتالله لأكيدن أصنامكم . وقيل : يشهدون أي يحضرون معاقبته على فعله فلما أتوا به بدؤوا سؤاله عن ما قذف به قائلين: أنت فعلت هذا ؟ فقال : بل فعله كبـيرهم فيحتمل أن يكون (بل) إضرابا عن سؤالهم لا عن الإعتراف بما سألوه عنه وأن يكون قولـه : فعلـه كبـيرهم متعلقًـا بقولـه: ﴿ إن كـانوا ينطقون ﴾ على المستحيل من تكسير الكبير للأصنام على المستحيل من نطق الأصنام فيكون مـن معـاريض الكـلام والواقـع منـه صـورة الكذب لا حقيقته وهذا ومثله يشبه أن يكون معدودًا من الأنبياء ذنوبًا كما عدت هموم القلوب بالمكروه التي لم يصحبها العزم ذنوبًا مـنهم لما خصهم الله عز وجل به من الكرامات ووهب لهم من اليقين والمكاشفات بالقدر والغيوب فاقتضاهم ذلـك أن لا يخـشوا أحـدًا إلا الله ولا يخطر بقلوبهم سوى مراضيه ويتأول هذا الحديث الصحيح النبوي: « أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات » ؛ قوله :بل فعله كبيرهم هذا ،

وقوله : إني سقيم ، وقوله لسارة : إنها أختي ، وكذلك ما تضمنه حديث الشفاعة الذي يرويه أبو هريرة من قوله وذكر كذباته الثلاث فإن قوله : إني سقيم بمعنى سأسقم كقوله تعالى : ﴿ إنك ميت ﴾ أي ستموت ، وقوله: إنها أختي يعني به في الدين، قال الله سبحانه : ﴿ إنما المؤمنون إخوة﴾ وقد جاء في الأثر : أنه ناضل بهذه الكذبات عن الإسلام ، والمناضلة عن الإسلام بالكذب في حق من سوى الأنبياء قربة وقد يجوز أن يكون الله سبحانه أمره بذلك وحيًا إليه وهو بعيد ؛ لأن أمتثال أمر الله سبحانه طاعة محضة وصراط مستقيم إلى مرضاته .

وروي لنا أن أم كلثوم [بنت بن][20] عقبة بن أبي معيط وكانت من المهاجرات الأول أخبرت ابنها حميد بن عبد الرحمن بن عوف أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيرًا وينمي خيرًا وعقب مسلم الحديث بما رواه عن ابن شهاب وهو الراوي عن حميد أنه قال : ولم أسمع يرخص في شيء من ما يقول الناس كذب إلا في ثلاث : الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها) فخلص من مجموع ما ذكرنا أن الأنبياء عليهم السلام مطالبون في هذا الأمر بما هو موضوع عن غيرهم بل منه ما يثاب غيرهم عليه والمقتضي لتكرر هذا الكلام في مواضعه من هذا الكتاب (١٦٦/ أ) ما اعتقده من كونه حقيقا بالإعتناء وجديرًا بالتكرار والله أعلم .

(٢٠) كذا في المخطوط .

الكلام على قول الله سبحانه :
﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ... ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ ... وكانوا لنا عابدين ﴾

أي رجعوا عن خطابه إلى خطاب بعضهم لبعض فقالوا إنكم أنتم الظالمون أي في ترك هذه الأصنام المكسرة مع هذا الصنم الكبير حتى غضب عليها فكسرها . وقيل : رجعوا إلى الفكرة في ما قال لهم إبراهيم وهو : ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ فينسبوا الظلم إلى أنفسهم في عبادة مالا ينطق ولا يمتنع من الشر .

وقال ابن عباس : أنتم الظالمون حيث عبدتم من لا يتكلم . وقيل : في سؤالكم إبراهيم عن ما حل بالأصنام ولا تسألون الأصنام عن ذلك .

﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم .. ﴾ الآية النكس في اللغة : القلب وهو أيضًا إعادة الشيء إلى ما كان بدئ به أولًا مثل الركس ويستعملان في المكروه غالبًا . قال ابن عباس : أقروا على أنفسهم بالكفر ثم أدركتهم الشقاوة فعادوا إلى الكفر يعني بإقرارهم قولهم: ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ أي الكافرون . وقيل : أي خجلوا فأطرقوا . وقيل : ذلوا بالحجة .

﴿ لقد علمت ﴾ أي قالوا ذلك لإبراهيم أي كيف تأمرنا بسؤال مالا نطيق[21] فلما قامت حجته عليهم بإقرارهم كاشفهم بالتقييد مكاشفة تتضمن الإقرار أنه فعل بأصنامهم ذلك قائلا: ﴿ أفتعبدون من دون الله ...﴾ الآية ، وهو سؤال توبيخ .

﴿ أف لكم ﴾ احتقار واستقذار لهم ولأصنامهم .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي ألا تفقهون أن هذه الأصنام التي لا تنطق ولا تمتنع فمن أرادها بسوء ليست أهلا لئن تعبد فأخذتهم الحمية وقالوا : ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم ﴾ أي بتحريقه والأخذ بثأرها منه ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي للنعت وقل ما يظهر بالحجة عالم على مقلد إلا عاداه وآذاه .

﴿ قلنا يا نار .. ﴾ الآية البرد مصدر وصف به وهو في موضع باردة كما قالوا : امرأة زور أي زائرة ، أي كوني بتكويننا بردًا قيل: فلم تبق نار مضطرمة في تلك الساعة إلا بردت ، أي خرجت عن الصلاحية لتحريق إبراهيم لو باشرها وهذا التحقيق وهو أن النار لو سلبت وصف الإحراق على العموم لكان غير الخليل من البشر مساويًا له في ذلك ويشهد لهذا قول الله سبحانه : ﴿ على إبراهيم ﴾ فخصص . (١٦٦/ ب) ومثله كون نار جهنم بردًا وسلامًا على المتقين إذا وردوها ، والسلام السلامة . قال علي ، وابن عباس : لو لم يقل الله عز وجل (وسلامًا) لأهلكه البرد . وفيه حديث مرفوع فالتقدير على هذا قلنا للنار كوني بردًا وللبرد كن سلامًا .

﴿ وأرادوا به كيدًا ﴾ قيل : سمي جزاؤهم له على كيده لأصنامهم كيدًا كما سمي جزاء السيئة سيئة وجزاء العدوان عدوانًا وهذا لأن الكيد إيصال المكروه إلى المكيد من وجه خفي عنه ، هذا الأصل ، وقد يستعمل في الإصابة بالمكروه على الإطلاق .

﴿ فجعلناهم الأخسرين﴾ خسروا أنفسهم بما عجل لهم من التعذيب بالبعوض وأجل من عذاب النار .

﴿ ونجيناه ولوطًا ﴾ أنجاه الله من النار وأنجى لوطًا من الكفار لأنه كان ممن آمن له يوم خرج من نار نمرود فهاجر معه من أرض العراق إلى أرض الشام هذا هو المشهور وهي الأرض المبارك فيه للعالمين أجمعين مؤمنهم وكافرهم بكثرة الأنهار والحبوب والثمار . وقيل : بركتها بكثرة بعثة الأنبياء منها وإلى أهلها . ويُحكى عن أحد الأئمة من السلف أنه قال : هي مكية ويعترض هذا أمران ؛ أحدهما : أنه لو هاجر إلى مكة لوطنها . والثاني : أن مكة مبارك فيها للمؤمنين من العالمين .

---

(٢١) كذا في المخطوط ولعل صوابها : « ينطق».

والمشهور عند العلماء أن لوطًا هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام فهو ابن هازان بن تارح ، وتارح هو آزر ، ويسمى هاران حرَّان وبه سميت القرية المعروفة ؛ لأنه اختطها . قال ابن عباس : لوط بن حران وإبراهيم عمه وقد قيل أنه ابن عمه وهذا لا يعرف .

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ النافلة الفضل . قال لبيد :

لله نافلة الأعز الأفضل

وحقيقة الفضل الزيادة تقول لهذا على هذا فضل أي : زيادة ، وسميت الركعات التي لم تفرض نافلة ؛ لأنها زيادة على الفريضة ، والغنائم سميت أنفالًا ؛ لأن الله سبحانه زادها في ما أحل من الرزق لهذه الأمة وكانت محرمة على الأمم السالفة . فإبراهيم عليه السلام سأل الله سبحانه أن يهب له ولدًا من سارة فأعطاه إسحاق وزاده ولدًا لإسحاق وهو يعقوب عليهما السلام . قال ابن عباس : نفله الله يعقوب . قيل : نافلة أي فضلًا . وقيل : نافلة أي غنيمة . ﴿ وكلًا ﴾ يعني إبراهيم ولوطًا وإسحاق ويعقوب ثم قال: ﴿ صالحين ﴾ فجمع وهي لغة فصيحة وكذلك لو قلت كلًا وجدت محمودًا لكان كقولك كلا وجدت محمودين . قيل : الصالحون هاهنا الأنبياء وهو مراد إبراهيم عليه السلام حين سأل الله أن يهب له ولدًا فقال: ﴿ رب (١٦٧/ أ) هب لي من الصالحين ﴾. وقيل: الصالحون العاملون بطاعة الله .

﴿ وجعلناهم أئمة .. ﴾ الآية أي: رؤساء في الدين قادةً إلى الخير يؤتم بهم فيه . ﴿ يهدون بأمرنا ﴾ أي يرشدون الناس ويبينون لهم الحق بأمر الله سبحانه إياهم بذلك . وقيل : الأمر هاهنا الوحي الذي أنزله كما قال تعالى : ﴿ روحًا من أمرنا ﴾ . قال ابن عباس : يدعون إلى عبادة الله . والخيرات جمع خيرة وهي مؤنث الخير . قال ابن عباس : فعل الخيرات فرائض الخير وشرائع النبوة . وقال غيره : الخيرات نوافل الطاعات .

﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾ قيل : موحدين . وقيل : مطيعين . وقيل: خاشعين متذللين .

قصة إبراهيم الخليل عليه السلام
فيما تضمنته هذه السورة

هو خليل الله عز وجل إبراهيم بن تارح ، وتارح بالسريانية آزر . وقيل : اسمه تارح ولقبه الذي يعرف به آزر . وقيل عكس ذلك .

وآزر هو ابن ناحور بن سارح ابن أرعو بن فالغ وهو الذي قسم الأرض بين ذرية نوح عليه السلام، وفالغ هو ابن عابر بالعين الغفل والباء المفتوحة هكذا ضبطت ويقال بالغين الموسومة ، وعابر هو بن شالح بن أرفخشد ويقال: أرفخشاذ بن سام بن نوح عليه السلام .

والملك الذي أراد إحراقه هو نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح ملك أرض بابل وكان ...[22] من رعيته. قيل : كان ذا وجاهة عنده وذا أمانة وتشدد واجتهاد في الكفر الذي كانوا عليه .

قيل : كان مولد إبراهيم عليه السلام ببابل. وقيل : بالسوس . وقيل : بكوثى ثم أوطن أبوه به بابل وإنما نمرود بن كوش فينكر علماء الفرس كونه ملكًا مستقلًا ، ويقولون كان عاملًا على بابل لملك الفرس .

وقد روى عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الذين ملكوا الأرض جميعًا أربعة مؤمنان وكافران : فالمؤمنان سليمان وذو القرنين ، والكافران نمرود وبخت نصر ».

وقال ابن مسعود : نمرود أول من ملك الأرض كلها . وذكر الطبري أنه ادعى الربوبية وأن الناس اضطروا إلى الميرة منه في عام قحط فكان يمير من أقرَّ له بالربوبية ، ويحرِمُ من أبى ذلك وأن إبراهيم عليه السلام وَفَدَ عليه فطالبه بذلك فقال: ربي الذي يحيي ويميت، (١٦٧/ ب) فحرمه . وهذا عندي دخله سهو وقد بينته في موضعه .

روى المفسرون في ما تضمنته هذه السورة سوى ما اشتملت عليه سورة الأنعام ما حاصله أن إبراهيم عليه السلام كان يكثر عيب الأصنام ثم أتى والده ومعه جماعة من قومه يريد إقامة الحجة عليهم في عبادتها فقال :

﴿ ما هذه الأصنام ﴾ وهذا مفسر بقوله تعالى: ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ فلم يدعوا شيئًا من ذلك بل قالوا : ﴿ وجدنا آبائنا لها عابدين ﴾ فصرح بضلالهم وضلال آبائهم وما ادعوا علما فيجادلهم عليه فعدل إلى إقامة الحجة من طريق آخر قال : ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ أي لأدبرن عليها تدبيرًا أفسدها به. قيل: حدَّث نفسه بذلك . وقيل : بل سمعه منه رجل واحد . قاله مجاهد ، وقتادة .

وقيل: لما ذهبوا إلى عيدهم قال ذلك فسمعه الزمناء والضعفاء المخلفون وكان لهم عيد يخرجون فيه عن مدينتهم إلى ظاهرها في كل سنة لا يتخلف عنه إلا عاجز عن الخروج إليه فيقيمون في لهو يومهم ذلك كله ثم يعودون فإذا خرجوا إلى عيدهم تركوا أفضل ما يقدرون عليه من الطعام عند أصنامهم . قال مقاتل : وكانت اثنين وسبعين صنمًا من ذهب وفضة ونحاس وخشب . وقيل : بل من صخر وخشب سوى كبيرها فإذا عادوا من عيدهم بدؤوا بأصنامهم فسجدوا لها ثم تفرقوا إلى منازلهم . قيل : كانوا يضعون الطعام عندها رجاء بركتها ثم يأكلونه . وقيل : كان قربانا لا يعودون فيه فلما ذهبوا إلى مجتمع عيدهم أتى إبراهيم عليه السلام بفأس فقطع الأصنام تقطيعًا وهذا يلائمه قول من قال إنها كانت من صخر وخشب سوى كبيرها وأنه كان من ذهب وعيناه ياقوتتان حمراوان ثم جعل الفأس على يدي الصنم الكبير وذهب فلما عاد القوم فرأوا ما حل بأصنامهم استعظموه وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون عمن يظنون به فعل ذلك فقيل : ﴿ سمعنا فتى يذكرهم ﴾ أي شابًا يعيبهم أو يتوعدهم . قال بن عباس : ما أرسل الله نبيًا إلا وهو شاب ، ثم سموه . وقيل : القائل من فعل هذا ، والقائل : فأتوا به هو نمرود وحده أمر بإحضاره ليراه الناس ويشهد عليه من سمع قوله .

---

(٢٢) في المخطوط كلمة غير واضحة .

قال الحسن ، وقتادة ، والسدي : كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فحضر إبراهيم عليه السلام وقال له نمرود : أنت فعلت هذا ؟ قيل : كانوا في بيت الأصنام فقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾. (١٦٨/ أ) قيل : إنه فعله هذا الكبير غضبًا لأنكم سويتم بينه وبين غيره من الأصنام في العبادة فسألوا هذه المقطعة عن ذلك وهذا يحتاج في قبوله إلى ما يثبت به مثله فإن فيه إخراج كلمته عن أن تكون من معاريض الكلام وتحققها في معنى الكذب وليس في كتاب الله ما يشهد له أعني قول القائل : أن الكبير فعله للغضب من أن سويتموه بغيره فعادوا على أنفسهم باللوم ووصفوها بالظلم . قيل : قال بعضهم لبعض كيف تنسبون إلى إبراهيم تقطيعها وأنتم ترون الفأس في يد كبير الأصنام . وقيل : قال بعضهم كيف يكسرها وهو مثلها . وقد قدمنا الخلاف فيه ثم نكس القوم على رؤوسهم أي عادوا إلى ضلالتهم . قال الحسن : يعني الرؤساء والأشراف فقالوا : ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالهم . قال ابن عباس : قالوا لقد علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم فقال حينئذ داعيًا لهم إلى عبادة الله وموبخًا على عبادة الأصنام ومقيمًا للحجة الموجبة عبادة الذي يملك الضر والنفع سبحانه : ﴿ أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئًا ولا يضركم أفٍ لكم ... ﴾ إلى آخرها ، فغضبوا لدينهم وآلهتهم وشاور نمرود خاصته في الإنتصار منه فاتفقوا على إحراقه فأمر به فسجن. وقيل: وهو الأولى بالحق – إن شاء الله – أن هذا هو مقام المحاجة المعنية بقول الله سبحانه : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ﴾ فقال له نمرود : وأنت يا إبراهيم من ربك قال : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ أخبر واستدل وكان نمرود مدعيًا للربوبية فيما ذكره الطبري ولا يبعد هذا فيكون عند نفسه إلها مع الأصنام ، أو إلها فوقها ، أو أدون منها فقال نمرود : فأنا أحيي وأميت وقد سلف هذا في موضعه .

قال ابن إسحاق : الذي أشار بإحراق إبراهيم هو رجل من أعراب فارس وهم الأكراد اسمه هيزن قال غيره: فخسف به في مقامه ذلك .

ثم أمر نمرود ببناء موضع يجمع فيه الحطب ويحرق فيه إبراهيم ففعلوا ذلك وجمعوا فيه من الحطب شيئًا كثيرًا. قيل : جمعوا الحطب شهرًا . قال السدي: كان الرجل يمرض فيوصى من ماله بكذا وكذا ليشترى به حطب لإحراق إبراهيم ، والمرأة تغزل فتشتري من غزلها الحطب كذلك .

قال ابن عباس: بنوا له بنيانا طوله في الهواء ثلاثون ذراعًا وعرضه عشرون (١٦٨/ ب) ذراعًا . وقيل : طوله أربعون ذراعًا وهو على وجه الأرض ثمانون ذراعًا وملؤوه حطبًا . قال ابن عباس : وأوقدوا فيه النار . قال غيره: حتى كان لهب النار تحرق الطير في الجو .

فلما أرادوا إلقاءه في النار لم يستطيعوا ذلك فظهر لهم إبليس فدلهم على عمل المنجنيق وهو أول منجنيق صنع. قال ابن عباس: فوضعوا إبراهيم في كفة المنجنيق وألقوه في الجحيم. قال السدي : بلغنا أن الملائكة والسموات والأرض والجبال قالت: ربنا عبدك إبراهيم يحرق فيك ، فقال الله سبحانه : إن استغاث بكم فأغيثوه . فقال إبراهيم : «حسبي الله ونعم الوكيل» . وقيل : إنه لما وضع في كفة المنجنيق قال : «اللهم أنت الرب وليس في الأرض من يعبدك غيري فأنت حسبي ونعم الوكيل» .

فلما خرج عن كفة المنجنيق اعترضه جبريل وميكائيل وملك الريح فقال له ميكائيل : إن خزائن الماء بيدي أفتريد أن أطفئ النار؟ قال: لا. فقال له ملك الريح : إن خزائن الرياح بيدي أفتريد أن أطير النار ؟ قال : لا . فقال له جبريل: ألك حاجة ؟ قال: أما إليك فلا. قال : فسأل ربك حاجتك ؟ قال : حسبي علمه بحالي . وهذا مقام الرضى عن الله سبحانه يرفع إليه المتحققون في الصبر لحكم الله والأدب مع الله والحياء من الله وهو مع كونه مقامًا عليًا حال المحبين لله عز وجل . وقد صرح عمر كرَّمه الله بأنه أقيم مقام الرضى فقال : ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء. وكذلك سعد بن أبي وقاص قال له عبد الله بن السائب : لو دعوت الله فرد

عليك بصرك ، فقال : يابن أخي قضاء الله عندي أحسن من بصري. وصرَّح عمر بن عبد العزيز رحمه الله بأنه أقيم به قائلًا : أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القضاء .

فلقد عظمت فضائل نبي يقام رجال من أتباعه بمقام خليل الله إبراهيم عليه السلام .

وقد روى لي ما رواه ابن وهب عن ابن لهيعة أن ذؤيب بن كليب الخولاني وهو أول من أسلم باليمن فسماه النبي صلى الله عليه وسلم "عبد الله" لما بلغ الأسود الكذاب تصديقه للنبي صلى الله عليه وسلم أضرم له نارًا وألقاه فيها فلم تضره شيئًا فهو في ذلك شبيه بـإبراهيم عليه السلام .

ولما انتهى إلى النار كانت عليه بأمر الله سبحانه بردًا وسلامًا .

روي عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن نمرود الجبار لما ألقي إبراهيم في النار نزل إليه جبريل بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد (١٦٩/ أ) معه يحدثه . قيل : أنبع الله عينًا وأنبت له روضة منورة تهتز . قال كعب الأحبار : أحرقت النار وثاقه وكانوا كتفوه . وقال ابن عباس: لم يحترق منه شيء إلا الوثاق . قال بعضهم : كان معه في النار أربعة أملاك جبريل ، وميكائيل ، وملك البرد . وقيل: ملك الظل ، وملك السلام .

والأكثرون يقولون: لبث في النار سبعة أيام ، واختلفوا في كيفية خروجه منها اختلافًا يمكن التأليف بينه . قيل : أري أبو إبراهيم في منامه أن إبراهيم عليه السلام خرج من البناء الذي فيه تلك النار وطلب فلم يقدر عليه فأخبر نمرود بذلك برؤياه فقال: إنه لصدوق وأمر فاتخذت له منظرة على خشب يشرف منها إلى تلك النار فرأي إبراهيم عليه السلام جالسًا . وقيل : مصليًا على طنفسة في روضة تهتز ومعه الملائكة فناداه وسأله عن حاله وعن الشخوص الذين معه فأخبره فقال: ولم تضرك النار ، قال : منعها ربي من ذلك . قال: ويمكنك أن تخرج منها ، قال: نعم إن شاء ربي. قال : فاخرج ، فقام فخرج منها .

وقيل: استأذن نمرود في إخراج فحم عظام إبراهيم ليدفنها فأمر بنقب الحائط فرأى إبراهيم على ما كان عليه من السلامة فأخبر بذلك نمرود فأتى فعلم حقيقة ذلك وكلمه بنحو ما ذكرت فخرج وثيابه تندي وأرادوا أخذه بعد أن فصل عن جماعتهم فبلبل الله ألسنتهم فلم يقدروا على السؤال عنه ولا على الدلالة عليه لأن بعضهم لم يفهم كلام بعض.

قال مقاتل : كانت لغتهم واحدة فتكلموا حينئذ باثنين وسبعين لغة . وقيل: خرج من النار إلى نمرود فقال له نمرود : إن إلهك لعظيم أفلا أقرب له قربانًا ؟ قال : إنه لن يقبل قربانك حتى تؤمن به فقرب لله عز وجل أربعة آلاف بقرة وقال: لا يمكنني فراق ديني لأن فيه فراق ملكي.

وآمن لإبراهيم عليه السلام في ذلك اليوم جماعة بعث الله عز وجل من أولادهم أنبياء وكان ممن آمن له لوط، وأخت لوط وهي سارة وهما ولدا هاران بن تارح وهو آزر فتزوجها إبراهيم عليه السلام وكان ذلك مباحًا في شرعه ثم انتقم الله عز وجل ممن كاد خليله فسلط عليهم البعوض . قال ابن عباس : في قول الله سبحانه : ﴿فجعلناهم الأخسرين﴾ خسر الملك الذي كان فيه ورجع الكيد على رأسه .

سلط الله عليه أضعف خلقه البعوض فما برح حتى رأى عظام أصحابه (١٦٩/ ب) وخيلهم تلوح ووقعت بعوضة على شفته العليا فقطعها ، ثم وقعت على شفته السفلى فقطعها، ثم وقعت في منخره فكان أكرم الناس عليه الذي يضرب رأسه بإرزبة من حديد فأقام بهذا نحوًا من أربع مائة سنة ، وزاد الطبري ما رواه عن أشياخه أن الله سبحانه أرسل إلى نمرود ملكًا بأن آمن بي فاحفظ عليك ملكك وأنقلك إذا توفيتك إلى ملك لا يبيد . فقال : وهل رب غيري وعاوده إلى الثالثة فقال له : اجمع جموعك إلى ثلاث ففعل . وأرسل الله عليهم البعوض ثم ذكر ما ذكره ابن عباس ، زاد غيره أنه لما كان صبيحة اليوم الموعود تأخر ضياء الشمس عن الظهور فقال للملك : من أين

تأتي جند ربك ، فأشار له إلى مشرق الشمس وأعلمه أن جند الله هو الذي حال بين ضياء الشمس وبين الإنتشار وقال له : إن ربي لم يسلط عليك إلا أضعف جنوده البعوض .

ولما نجى الله خليله عليه السلام أمره سبحانه بالهجرة إلى الأرض المقدسة فهاجر إليها وأنزل عليه بها عشر صحائف ، والله أعلم .

الكلام على قول الله سبحانه :
﴿ ولوطًا آتيناه حكمًا وعلمًا ... ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ ... وذكرى للعابدين ﴾

﴿ ولوطًا آتيناه ﴾ هذا مرتبط بقوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ . قال ابن عباس وغيره : الحكم النبوة. وقيل : الفهم في العلم . وقيل : الحكمة ، وليس كل علم حكمة إلا من حيث أنه يحكم عن الجهل بالمعلوم . و(الخبائث) الكفر وأذى الأنبياء وخذف السابلة. وقيل: كانوا ... في مجالسهم . والمراد بالقرية أهلها .

وكانت القرى أربعة . وقال ابن عباس : سبع والمُهلكات ست وأبقى جبريل زغر للوط وأهله يعني والله أعلم أن زغر كانت بتلك الأرض ولا يعني أن أهلها كانوا يعملون الخبائث وكانت عظماهن سدوم وبها كان يسكن لوط عليه السلام .

﴿ وأدخلناه في رحمتنا ﴾ قال ابن عباس : الجنة . وقيل : جميع ما أنعم به عليه .

وقوله : ﴿ من الصالحين ﴾ أي من الأنبياء المذكورين في السورة .

﴿ ونوحًا إذ نادى .. ﴾ الآية هذا متعلق بقوله تعالى : ﴿ وأدخلناه في رحمتنا ﴾ التقدير وأدخلنا نوحًا في رحمتنا .

﴿ إذ نادى ﴾ ونداؤه قيل : هو قوله : ﴿ أني مغلوب فانتصر ﴾ . وقيل : دعاؤه المذكور في سورة ﴿إنا أرسلنا نوحًا ﴾.

و﴿ الكرب العظيم﴾ ما نزل بأهل (١٧٠/ أ) الأرض من الطوفان .

﴿ ونصرناه من القوم ﴾ معنى النصر المنع من المكروه فجاء قوله : (من) على معنى النصر على لفظه . وقيل : (من) في موضع على ، وقرأ أبي بن كعب : ﴿ على القوم ﴾ ، والأول أولى ومثله : ﴿ ويا قوم من ينصرني من الله ﴾ أي من يمنعني وكانوا همُّوا بقتله لما علموا إستجابة دعوته ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ فيه أن ابنه كان ممن كذب بآيات الله فلذلك لم يكن من أهله أي من أهل دينه.

﴿ وداود وسليمان .. ﴾ الآيتين هذا متعلق بقوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ آتاهما الله سبحانه رشدهما .

﴿ إذ يحكمان في الحرث ﴾ وقيل : هو منتصب بفعل مضمر التقدير اذكر نوحًا إذ نادى من قبل واذكر داود وسليمان. والحرث الكسب والعمل. وإثارة الأرض للزراعة حرث ثم سمي المحروث حرثًا بالمصدر ، وسمي ما ينبت بالحرث مما يبذر ويغرس حرثًا كما سمي الكلأ الخارج من الأرض بالماء النازل من السماء سماء ، وأكثر المفسرين على أن الحرث هاهنا شجر العنب ولا يصلح إن سمي الكرم ، لما روى لنا من حديث علقمة بن وائل ، عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تقولوا الكرم ولكن قولوا العنب والحبلة.

ومن حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تسموا العنب الكرم فإن الكرم المسلم» ، وفي لفظ : « فإنما الكرم قلب المؤمن ».

قيل : كان العنب قد ينع شجره . وقال قتادة وغيره : كان زرعًا . والنفش : الرعي بالليل ، والنشر والسروح الرعي بالنهار. وقال : الراجز :

فما لها الليلة من انفاش   سوى السرى وسائق نجاش

وقد يجعل النشر للرعي بالليل كالنفش ويقال : نفشت الماشية إذا ذهبت إلى المرعى ليلًا ولا يشعر بها راعيها وانفشها راعيها إذا دعاها ليلًا .

﴿ وكنا لحكمهم ﴾ فيه أن أقل الجمع اثنان لأنه ذكر حاكمين ثم قال : (لحكمهم) فرجع الضمير إليهما .

و قيل : بل هو عائد إلى الحكمين والمحكوم لهم وعليهم وقد قال سبحانه ﴿ غنم القوم ﴾ .

﴿ ففهمناها سليمان ﴾ أي فهمناه الحكومة ودل على ذلك قوله : (يحكمان) .

﴿ وكلا آتينا حكمًا ﴾ يعني داود وسليمان . قال ابن عباس : الحكم النبوة ولهذا قيل : أن كل واحد منهما حكم بوحي فنسخ حكم داود علم سليمان إذ لا يجوز للمجتهد أن يترك اجتهاده لاجتهاد غيره والذي فهمه هذا القائل من الآية بعيد لأن الحكم بما فهم إن كان هو الحكم بالوحي فما اختص به سليمان دون داود وإن صح ما قاله فهو غير متعين (١٧٠/ ب) دون سواه بل يحتمل أن سليمان عليه السلام لما عرض على داود عليه السلام الفتيا باجتهاده رجع داود عن تصويب اجتهاده إلى تصويب اجتهاد ولده وكانت القصة الأولة لم تنفذ بعد ولم تفت وفواتها بالإمضاء والتسليم .

القصة وما فيها من الفقه

قيل كان رجل بأرض بيت المقدس له غنم فأراحها ليلة إلى ما يقدب من حرث لقوم ونام فنفشت فدخلت الحرث فأفسدته وليس به أصحابه فتحاكموا إلى داود عليه السلام وسليمان جالس بالباب فنظر داود في قيمة الغنم وقيمة ما أفسدته فتساوت القيمتان . وقيل: تقاربتا فقضى لرب الحرث برقاب الغنم وخرجا فسألهما سليمان عليه السلام فأخبراه فقال: عدل نبي الله وغير ذلك كان أرفق فرجع صاحب الغنم إلى داود فأخبره فأحضر سليمان . وقيل : بل كان سليمان حاضرًا مجلس الحكم فلما قضى داود قال له : أو غير ذلك يا نبي الله فسأله ما هو فقال : يدفع الغنم إلى صاحب الحرث فله أولادها ومنافعها ويعمل ربها أرض صاحب الحرث حتى يعود إلى ما كان عليه حين نفشت الغنم فيه فيرتجع غنمه فوافق ذلك داود عليه السلام وقضى به .

وقيل : بل صرف الخصمين إليه فقضى بينهما وكان بعد ذلك يستشيره ففيها جواز حكم النبي بالاجتهاد وإذا شرع ذلك في حقه مع كونه أهلا لأن يتعرف الحكم من جهة الوحي بأن يسأل الله سبحانه أن يوحى إليه به لم ينكره أن يشرع مثله في حق العالم من أمته وقد شرع لنا من هذه القضية التفرقة بين ما أفسدته الماشية السارية نهارًا أو بين ما أفسدته النافشه ليلًا .

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم تحاكم إليه قوم في غنم نفشت في زرع فقضى صلى الله عليه وسلم على أصحاب الغنم بما أفسدت وقضى على أن أصحاب الغنم حفظ الغنم ليلًا وعلى أصحاب الحوائط حفظها نهارًا وكذلك قضى صلى الله عليه وسلم لما تحوكم إليه في ناقة البراء ابن عازب دخلت حائط قوم فأفسدت أن على أهل الأموال حفظ أموالهم بالنهار وأن على أهل الماشية ما أصابت بالليل فأما ما أصابت الدابة التي معها راكب أو سائق أو قائد في ليل أو نهار فمضمون ، وأما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « العجماء جرحها جبار » محمول على ما إذا انفلتت من غير أن تكون من ربها تفريط ولا أثر في ما صنعت ولما ذكرناه تفصيل ليس هذا موضعه .

قوله تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ تقديره : الجبال والطير يسبحن . قيل : كانت تسبح معه إذا سبَّح وكان في ذلك نشاط له وعون على أمره . وقيل : كان (١٧١/ أ) إذا أمرها بالتسبيح أطاعته فارتاح لذلك فذلك تسخيرها فتكون مع في موضع اللام .

﴿ وكنا فاعلين ﴾ الفعل هاهنا في موضع نفود الأمر . قال ابن عباس : يريد كل ذلك من فعلي وقدرتي .

﴿ وعلمناه صنعة لبوس ... ﴾ الآية اللبوس بفتح اللام واللباس اسم لما يلبس كالسرابيل واللبوس هاهنا دروع الحديد .

علَّم الله سبحانه خليفته داود عملها وكانت الدروع قبل ذلك تتخذ من صفائح فيشق على لابسها الثني فيها ومن قرأ: ﴿ لنحصنكم ﴾ بالنون حمل ذلك على قوله تعالى : ﴿ وعلمناه ﴾ . وقوله : ﴿ من بأسكم ﴾ أي لتحصن بعضكم من بأس بعض وهو الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرشق بالسهم . قال ابن عباس : تمنعكم من السيف والرمح والسهم . وقال السدي : تمنعكم من وقع السلاح فيكم .

وقوله : ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ استفهام بمعنى الأمر .

﴿ ولسليمان الريح .. ﴾ الآية هذا متعلق بالتسخير المذكور قبله أي وسخرنا لسليمان الريح وعصوف الريح شدة هبوبها وقال في سورة ص : ﴿ **رخاء** ﴾ فقال ابن عباس : إن أمر الريح أن تعصف عصفت وإن أراد أن ترخى أرخت وهذا يفهم من قوله : ﴿ تجري بأمره ﴾ .

والأرض المباركة أرض فلسطين وأخبر سبحانه عن جريها به في عوده إلى وطنه فعلم جريها به في ذهابه من جريها به في إيابه كما قال : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ فأغنى عن ذكر البرد .

﴿ وكنا بكل شيء ﴾ أي بكل شيء فعلنا ، قاله ابن عباس. أي فعل كل شيء بعلم له وصحة تدبير فيه .

﴿ ومن الشياطين من يغوصون .. ﴾ الآية من تقع على الواحد والإثنين والجميع وكانت الشياطين تستخرج له اللؤلؤ وغيره من البحر .

﴿ ويعملون عملًا دون ذلك ﴾ أي سوى ذلك ، قيل : عملوا له الحمامات والطواحين والزجاج والصابون والنورة ولم يكن الإنس يعرفون هذه الأشياء وعملوا له ما ذكر في سورة سبأ. قال ابن عباس: يريد سلطناه عليهم يعملون له ما يشاء ويفعل بهم ما يشاء . قال غيره : وتولى الله تعالى حفظهم لئلا يتفرقوا عنه. وقيل : حفظهم من أن يفسدوا ما عملوا . قيل: كان يضبط أمرهم بمؤمني الجن . وقيل : بل بالسلطان الذي جعل في خاتمه .

﴿ وأيوب إذ نادى ربه .. ﴾ الآيتين .

القصة مذكورة في سورة (ص) وكان مقام أيوب الصبر أثنى الله عز وجل عليه به قائلا : ﴿ إنا وجدناه صابرًا ﴾ . وقيل: إن مقامه الرضى ولا يراد أنه غير ساخط لقدر الله عز وجل فإن هذا مقام عموم (١٧١/ ب) المسلمين والسخط لقدر الله عز وجل من الكبائر وإنما يراد بالرضى القناعة بما قسم الله له من البلاء حتى لا يريد به بدلا وقول الله سبحانه : ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ دليل خطابه أنه دعا بكشف الضر. وقوله : ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ تتضمن الرغبة في رحمته من الضر الذي مسه بكشفه . وقيل : إن الراضي لا يخرجه عن الرضى إن يُعرِّض بسؤال نقله من حال إلى حال وإنما يخرجه عن الرضى التصريح بالسؤال وهذا بعيد بل لو اقتصر على ذكر النقل على حاله بقلبه لكان في معاملة الله سبحانه كالمصرح بالرغبة في النفل غير أن جعفر بن محمد رضي الله عنه أدخل أيوب عليه السلام إلى الرضى من باب آخر فذهب إلى أنه ألف الضر حتى صار له وطنا ولم يجد لمسه ألمًا فقال مسني الضر وهو يريد بالضر فقد ألم الضر ويؤيد هذا أن ابن عباس وصفه بالشكر على البلاء فقال نادى يريد دعا ربه بعد سبع سنين كلما وقعت من جسده دوده ردها مكانها شكرًا لله وصبرًا على بلائه غير أنه قال في (الضر) : يريد الأوجاع . ومعلوم أن جعفر بن محمد لم يرد بنفي الألم نفي الإحساس به وإنما أراد نفي الكراهية له فظهر إمكان الجمع بين القولين .

﴿ ووهبنا له أهله ﴾ قال ابن عباس : ردهم عليه وأعطاه مثلهم معهم . قال جماعة من المفسرين : كان له سبعة بنين وثلاث بنات فأحياهم الله له بعد أن هلكوا وأعطاه مثلهم . وقيل : ﴿ ووهبنا له أهله ﴾ أي جعلناهم في ميزانه. ﴿ ومثلهم معهم ﴾ أي أعطيناه مثلهم في الدنيا .

﴿ رحمةً من عندنا ﴾ أي نعمة تفضلنا بها من غير استحقاق كما تقول خذ هذا من عندي أي لا تستحقه علي ولكني تطولت به عليك .

﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أي عظة للموحدين المطيعين .

ومما روي لنا في كتب المفسرين جملة :

ابن عباس قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل ﴿ ووهبنا له أهله .. ﴾ الآية فقال : « يابن عباس : رد الله امرأته إليه وزاد في شبابها حتى ولدت له ستة وعشرين ذكرًا وأهبط الله عليه ملكًا فقال : يا أيوب إن الله يقرئك السلام بصبرك على البلاء فأخرج إلي أندرك فبعث الله سبحانه حمراء وأهبطت عليه جرادًا من ذهب والملك قائم معه فكانت الجرادة تذهب فيتبعها حتى يردها إلى أندره فقال الملك : يا أيوب أما تشبع من الداخل حتى تتبع الخارج ؟ فقال : إن هذه بركة من بركات ربي ولست أشبع منها فمقتضى هذا الحديث أن عدة أولاده المفقودين (١٧٢/ أ) أكثر ما قدمنا ، وأن امرأته كانت قد هلكت، إلا أن يريد إعادة شبابها .

الكلام على قول الله سبحانه :
﴿ واسماعيل وادريس وذا الكفل ... ﴾ الى قوله سبحانه: ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ .

قد سلف ذكر إسماعيل وإدريس عليهما السلام ، وأما ذو الكفل فروي عن ابن عباس أنه قال : إن ملكًا من بني إسرائيل كان نبيًا فأوحى الله إليه : إني أريد قبضك ، فاعرض ملكك على بني إسرائيل ، فمن تكفل لك فإنه يصلي الليل كله لا يفتر ، ويصوم الدهر فلا يفطر ، ويقضي بين بني إسرائيل فلا يغضب ، فسلم إليه ملكك .

فخطب في بني إسرائيل بذلك ، فقام إليه شاب ، فقال: أنا أتكفل بذلك ، فقال له : إن في القوم من هو أكبر منك فاقعد ، ومكث ما شاء الله ثم قام في بني إسرائيل بمثل كلامه ، فقام ذو الكفل ، فقال : أنا أتكفل لك بذلك ، فدفع إليه ملكه ، فوفى بما تكفل ، فحسده إبليس فأتاه عند القائلة فقال : إن لي غريمًا قد مطلني حقي ودعوته إليك فامتنع فأرسل معي من يأتيك به ، فأرسل معه وقعد لانتظاره حتى فاته المقيل ، ثم جاءه فقال : إنه قد هرب ، فمضى ذو الكفل إلى صلاته وصلى ليلته حتى أصبح ، فلما أراد أن يقيل أتاه إبليس فقال له كمقالته الأولى فأرسل معه من يأتيه به وامتنع من المقيل لانتظاره ثم أتاه إبليس فقال : قد هرب ، فمضى ذو الكفل إلى صلاته وبات يصلي ليلته حتى أصبح ، ثم أتاه إبليس عند المقيل ، فقال له كمقالته الأولى ، فقال ذو الكفل : أنا أذهب معك إليه فما زال يطوف به حتى فاته المقيل وذهب لصلاته وصلى ليلته كلها ثم أتاه إبليس فقال له : إني حسدتك على أمرك فأردت أن أخرجك حتى لا تفي بما تكفلت به .

قال ابن عباس : فشكر الله له ونباه .

وقال أبو موسى الأشعري : لم يكن نبيًا ، ولكنه كفل بصلاة رجل كان يصلي كل يوم وليلة مئة صلاة ، وتوفي ذالك الرجل فسمي ذا الكفل ، وقال ابن قتيبة : لم أجد له فيما حدث به ابن منبه ذكرًا وهو من بني إسرائيل ، بعث إلى ملك كان فيهم اسمه كنعان فدعاه إلى الإيمان وكفل له بالجنة ، وكتب له بذلك ذكر حق على الله عز وجل ، فآمن الملك فسمي (١٧٢/ ب) ذا الكفل بالكفالة .

وقوله سبحانه : ﴿ كل من الصابرين﴾ ، قال ابن عباس : يريد الصابرين على طاعة الله عز وجل وعن معاصيه .

﴿ وأدخلناهم في رحمتنا ﴾ قيل : يعني الجنة ، وقيل: يعني جميع ما أنعم عليهم به في الدنيا والآخرة ، وقيل : يعني العصمة عن معاصيه . ﴿ إنهم من الصالحين ﴾ ، أي الأنبياء .

﴿ وذا النون ﴾ قال ابن عباس : يريد وذا الحوت . قال : يريد يونس عليه السلام .

ولا خلاف في هذا ، والنون الحوت العظيم وجمعه نينان ، وهو من بني إسرائيل بعث فيهم بعد إلياس عليه السلام وقصته مستوفاة في سورة ﴿ والصافات ﴾.

وقوله تعالى : ذهب مغاضبًا أي لقومه ، يقال : غاضب فلان قومه وراغمهم وهاجرهم ، فهي مفاعلة بينه وبينهم ، لأنهم فعلوا ما حمله على ذلك .

قال الضحاك : هو حزقيا وهو الملك الذي كان أمر بني إسرائيل إليه في زمانه ، أراد بعثة يونس إلى ملك كان قد غزى بني إسرائيل فسبى كثيرًا منهم ليطالبه بتخلية السبي ، وكان الله سبحانه أوحى إلى شعيا بأن يبعث لذلك رجلا قويًا أمينًا فقال يونس لشعيا الله أمرك بإخراجي وسماني لك ، قال : لا . قال : فها هنا غيري ، وذهب مغاضبًا لهما ولقومه فأتى بحر الروم فكان من أمره ما أخبر الله سبحانه وإنما حبس في بطن الحوت لمخالفته شعيا ، والمشهور غير هذا .

قال مقاتل : ذهب مغاضبًا مراغمًا لقومه حزقيا ابن خار ومن معه من بني إسرائيل إذ لم يؤمنوا .

وروى العوفي والضحاك عن ابن عباس أنه خرج مغاضبًا لقومه وقيل : الغضب يستعمل يعني الأنفة ، فيونس عليه السلام أنف من أن يكون رسولا لنبي وهو رسول الله ، وقيل على المشهور : لما أطلعه الله سبحانه على أنه أمر بتعذيب قومه وأمره بالخروج عنهم فعل وكان سأل عن أخبارهم فأخبر بسلامتهم ولم يخبر بتوبتهم ، فأنف أن يعود إليهم وهم يظنون به الكذب ، فذهب أنفًا من ذلك ، فظن أن لن نقدر عليه ، القدر : التضييق ، ومنه ومن قدر عليه رزقه ، أي ظن أنه ليس في حرج من ما فعل.

وقال الحسن : أي يظن أن لن نعاقبه ، وروي عن ابن عباس بمعناه ، وقال مجاهد وقتادة والضحاك والعوفي : أي أن نقضي عليه العقوبة ، وقضاء الله يأتي بمعنى قدره ، ومنه : وكان أمرًا مقضيًا ، أي مقدرًا ، ومنه فلما قضينا عليه الموت .

فنادى في الظلمات قيل ظلمة بطن الحوت وظلمة عمق البحر وظلمة الليل ، (١٧٣/ أ) وقيل : الظلمات الشدائد والأهوال ، يقال : اللهم أحل عنا هذه الظلمات ، وقيل : ابتلع الحوت الذي ابتلعه حوت آخر ، وكان نداؤه ليلًا فهن ظلمات ثلاث .

﴿ أن لا إله إلا أنت ﴾ توسل بالتوحيد .

﴿ سبحانك ﴾ توسل بالتنزيه .

﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ اعتراف بالخطيئة ، وتعريض بطلب العفو ، وكانت خطيئته غير معلومة له قبل أن يوآخذ بها ، يدل على ذلك قوله تعالى : فظن أن لن نقدر عليه أي ظن أنه لا يعاقب على ما أتاه ولا يكون في حرج منه فهو متأول ولم يعلم خطأه في تأوله حتى ضيق عليه أشد ما ضيق على مؤاخذ بذنب في الدنيا من المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ **ونجيناه من الغم** ﴾ أي غم الخوف من الله وغم ما هو فيه وكذلك ننجي المؤمنين.

روى كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلكم على اسم الله الجواد الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال : الذي دعا به يونس بن متى حين نادى في الظلمات : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » قال رجل : يا رسول الله أكانت ليونس خاصة ؟ فقال : « ليونس خاصة وللمؤمنين عامة ألا تسمع قول الله عز وجل : ﴿ **فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾ يريد كذلك أفعل بأوليائي واحتج أبو عبيد بقراءة عاصم : ﴿ **وكذلك نجي** ﴾ بنون واحدة بأمرين أحدهما : إضمار المصدر فيكون التقدير نجي النجاء المؤمنين فيرتفع النجاء ونجعله مفعول نجي ، والثاني أن يكون أصله ننجي بالتشديد كما قال : ونجيناه ثم أدغمت النون الثانية في الجيم والوجه الأول مردود ، لأن الإنجاء يكون للنجاء لا للمؤمنين . والثاني أيضًا مردود ؛ لأن أحدًا لم يقل إن النون تدغم في الجيم ، نعم تخفى والإخفاء غير الإدغام ، ولأن الجيم مشددة فهي بذلك التشديد جيمان الأولى منهما ساكنة ومدغمة فكيف تدغم النون في حرف مدغم ، وقيل : إن الراوي عن عاصم غلط عليه ؛ لأنه سمعه يخفي النون الثانية عند الجيم فتوهم أنه أدغمها فيها ولمكان هذا الإخفاء جاءت في المصحف بنون واحدة ولو كانت على ما ... عن عاصم للزم تحريك الياء ورفع المؤمنين وهذا كما جاء في مصحف أهل الحجاز .

﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ بنون واحدة لخفاء النون عند الصاد فأما قول الشاعر (١٧٣/ ب) :

ولو ولدت قفيرة جرو كلب   لسب بذلك الجرو الكلابا

فهو بيت نادر لم يأت ما يشبهه في أشعار الجاهلية ومن قرب من عصرهم ، وقيل في عصر بني أمية والشعر محل ضرورة يحتمل فيه ما لا يحتمل في غيره وأكثر هذا الكلام عن ابن قتيبة ، وقال هي قراءة عاصم بن أبي النجود وحد . قال غيره : وقد روى حفص عن عاصم أنه قرأ بنونين .

﴿ وزكريا إذ نادى ربه ... ﴾ الآيتين أي ناداه داعيًا راغبًا ، قال ابن عباس : فردًا وحيدًا بلا ولد .

والوارث في وصف الله سبحانه معناه : الباقي بعد فناء خلقه كما قال : ﴿ **إنا نحن نرث الأرض ومن عليها** ﴾ أي : نبقى بعد فنائهم ، وكان زكريا عليه السلام سأل ربه تعالى ولدًا يرثه فأتبع ذلك بأن قال : ﴿ **وأنت خير الوارثين** ﴾ أي أفضل من يرثني ويرث غيري .

﴿ **فاستجبنا له** ﴾ أي أعطيناه ما سأل فالاستجابة تكون بالفعل والقول .

﴿ **وأصلحنا له زوجه** ﴾ أي جعلها ولودًا بعد أن كانت عاقرًا عجوزًا ، واسمها أشاع بنت فاقود وأختها حنة بنت فاقود وكان زكريا ابن أذن وعمران بن ماثان تزوجا بنتي فاقود ، فولدت حنة لعمران مريم بعد أن علت في السن .

قيل : إن طائرًا بزق فرخه فسألت الله عز وجل يهب لها ولدًا فحملت بمريم ومات بعلها عمران قبل أن تلدها وبقيت أختها عند زكريا لا تلد له حتى كبرت مريم في كفالته وكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فيقول : ﴿ **يا مريم أنى لك هذا** ﴾ فتقول : ﴿ **هو من عند الله** ﴾ فيسأل الله عز وجل ذرية طيبة فاستجاب دعوته قبل أن تحمل مريم بسنين ، وقيل بعدما أكرم الله عز وجل مريم بالحمل بعيسى فأصلح لزكريا زوجه فحمله قال الكلبي : ولدت يحيى ولها تسع وتسعون سنة .

وروي عن ابن عباس أنه قال : كان في لسانها بذاء فأصلحها الله له فكانت لا تعصيه ولا تخالفه .

﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ قيل : الضمير عائد إلى الأنبياء المذكورين كلهم ، وقيل : هو عائد إلى زكريا وامرأته وابنه .

﴿ يسارعون في الخيرات ﴾ أي في فعلها .

والرغب والرهب مصدران كالرغبة والرهبة ومن العرب من يقول : رُغْب ورُهْب بالإسكان ومثله الرُّشْد والرَّشَد ، ومنهم من يفتح الواو ويسكن ما بعدها قال ابن عباس : راغبين في الجنة راهبين من النار .

﴿ **وكانوا لنا خاشعين** ﴾ أي مخبتين متواضعين.

﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ هي مريم

(١٧٤/ أ) عليها السلام أخبر سبحانه بحفظها نفسها . والإحصان المنع ، ويقال : امرأة محصن ومحصنة وحاصن وحاصنة وحصان كل ذلك من العفة والامتناع من الفحشاء وكل فلك من شيئين فرج وفرجة وفروج الدابة ما بين قوائمها ولهذا قال بعضهم المعنى منعت جيب درعها . قيل : هذا أبلغ في المدح والتنزيه عن السوء .

﴿ **فنفخنا فيها** ﴾ أي نفخ جبريل بأمرنا روحًا وصل إلى باطنها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام ، والمشهور المنقول أن جبريل نفخ في جيب درعها .

وقوله عز وجل ﴿ **فنفخنا فيه** ﴾ كقوله ﴿ **فنفخنا فيها** ﴾ لأن النفخة كان تأثيرها في محل الحمل من باطنها والروح والريح سواء ، قالت امرأة :

لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلي من قصر منيف

والروح التي نفخها جبريل عليه السلام في جيب مريم كالروح التي نفخت في آدم عليه السلام خصها الله عز وجل بتشريف وتكريم.

وأما مسألة ما هما ؟ فجوابها قول الله عز وجل : ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾ .

﴿ **وجعلناها وابنها آية للعالمين** ﴾ أي عجبًا وجاءت الآية بلفظ التوحيد لاشتراكهما فيها وإن أحدهما لا يستقل بها دون الآخر قال ابن عباس : ما حاصله ليس في السماء ولا في الأرض امرأة ولدت بلا رجل سوى مريم ولا فيهما ولد من غير أب إلا عيسى ، وإنما يعني البشر سوى آدم فإنهما خلقا من غير أب ولا أم وفي السماء أنبياء رفعوا إليها .

الكلام على قول الله سبحانه :

﴿ إن هذه أمتكم ﴾ [الآية ٩٢] إلى قوله : ﴿ قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾ [الآية ٩٧]

القراءات : قرأ ابن عامر وحده : فتحت بالتشديد .

قرأ عاصم وحده يأجوج ومأجوج بالهمزة .

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وحدهم : وحرم بكسر الحاء وإسكان الراء وبلا ألف .

أجمعوا على قراءة : لا يحزنهم بفتح الياء وضم الزاي ها هنا فقط .

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وحدهم : للكتب بضم الكاف والتاء بلا ألف .

قرأ حمزة وحده : في الزبور بضم الزاي حيث كان فهو عنده اسم جمع .

قرأ حفص عن عاصم وحده : ﴿ قال رب ﴾ بألف ﴿ وقال رب احكم بالحق ﴾ وهذا هو في المصحف البصري .

ذكر اليآت :

أسكن حمزة وحده الياء من : ﴿ **مسني الضر** ﴾ ومن ﴿ **عبادي الصالحون** ﴾ .

فتح حفص عن عاصم وحده ياء ﴿ **ذكر من معي** ﴾ .

فتح نافع وأبو عمرو وحدهما ياء : ﴿ **إني إله من دونه** ﴾

فصل

الأمة القوم (١٧٤/ ب) المجتمعون على أمر واحد من دين أو غيره ثم سمى الدين الذي تجتمع عليه أمة .

قال ابن عباس : يريد دينكم دين واحد ، وقيل : المعنى هذه ملتكم وهي شريعة الإسلام ملة واحدة لم أشرع دينًا سواها جاء معناه الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم .

ومن الأمة بمعنى الشريعة والملة ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ .

﴿ وأنا ربكم ﴾ أي لا إله غيري ﴿ فاعبدون ﴾ أي وحدون وأطيعون ونصب أمة على الحال أي في حال اجتماعهم على الملة ليس منكم من خالفكم كقولك : قد أظفركم يدًا واحدة أي في حال كونكم يدًا واحدة .

﴿ وتقطعوا أمرهم ﴾ الآية كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا** ﴾ قال جماعة من المفسرين : أمرهم دينهم يعني الإسلام الذي أمروا به فمنهم من تهود ومن تنصر ومن تمجس وغير ذلك ، وقيل : يعني اليهود والنصارى تفرقوا في الدين ، ولعن بعضهم بعضًا ويروى بعضهم من بعض .

وقال ابن عباس : يريد المشركين اتخذوا من دون الله آلهة . ثم قال : ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ قال: يريد : الذين اتخذوا إلهًا غيري والذين وحَّدوني .

قيل تقطعوا في موضع قطعوا وأمرهم مفعول ، وقيل : أي تقطعوا في أمرهم فحذف الجار فانتصب الأمر . وقوله : ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ يتضمن الوعد والوعيد .

وقوله تعالى : ﴿ **فلا كفران لسعيه** ﴾ أي لا يجحد عمله بل يشكر بالثواب عليه . وقوله : ﴿ **وإنا له** ﴾ أي لسعيه ، والكاتبون الحفظة يكتبون بامر الله سبحانه أعمال العباد ليجدها العباد مسطورة في كتبهم .

﴿ وحرام على قرية ... ﴾ الآية . الحرم والحرام سواء كالحل والحلال ، والله سبحانه حرَّم على أهل القرى المهلكة أن يرجعوا إلى الدنيا ، وقيل الهاء ضمير القرية أي لا يرجعون إلى القرية في الدنيا ولا في الآخرة و(لا) زائدة صلة للتأكيد ، وقيل : أهلكناها أي سبق لها الهلاك في علمنا .

﴿ **أنهم لا يرجعون** ﴾ أي لا يتوبون ، وقال ابن عباس يريد حتمًا مني متى أهلكت قرية لا أعود عليها برحمة في الدنيا ، ولا في الآخرة، وعنه أيضًا أنَّه قال : واجب على أهل كل قرية أهلكناهم بالكفر أنهم لا يرجعون إلى الدنيا وقاله قتادة وعكرمة والكلبي وعطاء .

﴿ **حتى إذا فتحت** ... ﴾ الآية التقدير فتحت سبيل بأجوج ثم إنهم كباب من أبواب الهلاك لمن خرجوا عليه وهم من أبواب قيام الساعة فأخراجهم فتح لذلك .

والحدب الأكم وكل نشز حدب . ينسلون أي يعدون ويسرعون وهو إسراع في مقاربة خطو وهو من عدو الذئب والكلب . نسل ينسل وغسل يغسل (١٧٥/ أ) سواء قال الشاعر :

عسلان الذئب أمسى طاويًا ... برد الليل عليه فنسل

أي لا يرى نشر ... ينسلون منه .

قال ابن عباس : من كل وجه ...

قيل: نفخة البعث يخرجون قال غيره : المواضع التي يخرجون منها على المعمور من الأرض بغيرهم أنشاذ ، وقيل : أغنى ذكر الأنشاذ عن غيرها من الأرض .

﴿ **واقترب الوعد الحق** ﴾ قيل : يعني نفخة الصعق ، وقيل : نفخة البعث .

قيل الواو زائدة ، وجواب حتى قوله : ﴿ **اقترب** ﴾ ، وقيل : بل عاطفة ، والجواب : ﴿ **يا ويلنا** ﴾ تقديره : قالوا يا ويلنا.

﴿ **فإذا هي شاخصة** ﴾ دليل على أنها نفخة البعث ، وهو قول ابن عباس ، قال : يريد القيامة .

قيل: فيه تقديم وتأخير . التقدير فإذا أبصار الذين كفروا هي شاخصة ، أي : لا تطرف لهول ما تعاين .

وقال الفراء : هي عماد يا ويلنا أي : يقولون ذلك.

﴿ في غفلة ﴾ قال ابن عباس : في عماية عمَّا يرادبنا . و﴿ من هذا ﴾ في موضع عن هذا ، والظلم الشرك .

وبعد :

فإن الله سبحانه ذكر خروج يأجوج ومأجوج ثم عقب ذلك بذكر قيام الساعة ففهمنا من ذلك أن خروجهم من أواخر أشراطها ويشهد لذلك ما روي لنا من حديث النواس بن سمعان أنه قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال : « ما شأنكم ؟ » قلنا : يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل . فقال : غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم إنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه[٢٣] منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف إنه خارج من [خلة بين][٢٤] الشام والعراق فعاث يمينًا وعاث شمالًا ألا يا عباد الله فاثبتوا ، قلنا:

(٢٣) في الأصل : أدرك .

(٢٤) ما بين المعكوفين زيادة من صحيح مسلم لابد منها .

يا رسول الله وما لبثه في الأرض ؟ قال : أربعون يومًا : يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم . قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنه أتكفينا فيه صلاة يوم قال: « لا ، أقدروا له قدره »، قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض (١٧٥/ ب) فتنبت فتمر عليهم سارحتهم أطول ما كانت درًا وأسبغه ضروعًا وأمده خواصرَ، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ، ثم يدعو رجلًا ممتلئًا شبابًا فيضربه بالسيف فيقطعه جزْلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء بشرقي دمشق بين مهرودتين واضعًا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ[٢٥] فيقتله ثم يأتي عيسى عليه السلام قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينا هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحدٍ بقتالهم فحوِّز[٢٦] عبادي[٢٧] إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه ماء ويحصر نبي الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفسٍ واحدةٍ ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبي الله وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مَدَرٍ[٢٨] ولا وبرٍ فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ، ثم يقال للأرض انبتي ثمرتك وزودي بركتك فيوشك تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها يبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ الفخذ من الناس فبينما هم كذلك بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحُمُرِ فعليهم تقوم الساعة[٢٩] .

قوله صلى الله عليه وسلم في وصف الدجال : عينه طافية مفسرٌ (١٧٦/ أ) في حديث آخر رواه حذيفة بن اليمان فقال فيه : ممسوح العين عليها طفرة غليظة مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب .

وفي حديث آخر يرويه ابن عمر : كأن عينه عنبة طافية . وجاء في حديث حذيفة : أنها عينه اليسرى .

وقوله : « يوم كسنة » لا يعني به والله أعلم أن الشمس يكون في طلوعها وغروبها سنة ؛ لأن ذلك لو كان لفسد ما على الأرض من حيوان ونبات مع أننا لا ننكر أن يزاد في طول اليوم لما في الحديث من قولهم : تكفينا فيه صلاة يوم ، قال : « لا ، اقدروا له قدره » . وقد زيد في طوله ليوشع عليه السلام حتى فتح الله عليه مدينة الجبارين غير أنه والله أعلم إشارة إلى استطالة الناس تلك الزيادة لما يلقونه من

(٢٥)

(٢٦) كذا في الأصل وفي صحيح مسلم : فحرز بالراء بدل الواو.

(٢٧) في الأصل : عباد .

(٢٨) في الأصل : مدد بالدال ، والتصويب من صحيح مسلم .

(٢٩) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢٩٣٦) بطوله .

الشدة فيها حتى تكون عندهم كسنة ومنه قوله عز وجل: ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ ويحتمل والله أعلم أن تحجب حر الشمس في أثناء ذلك اليوم بالسحاب وتنزل الأمطار لحاجة الخلق ، والله على كل شيء قدير .

وقوله : « فيأمر السماء فتمطر » لم يقل فيه أنها تمطر بأمره فالممطر المنبت هو الله سبحانه .

وقوله : « كيعاسيب النخل » هي الذكور منها يعني سرعة خروج الكنوز وأنها تحمل معه كما تقول : سار الملك وتبعته خزائن الأموال وخزائن السلاح .

وقوله في المقتول: « فيقطعه جزلتين » أي قطعتين ، والجزل القطع ، وهذا إخبار عن سحره وشعوذته لا إخبار بأنه يحيي الموتى ، قال الله سبحانه : ﴿ **سحروا أعين الناس** ﴾ وقال : ﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ وذكر النبي صلى الله عليه وسلم جندبًا وزيدًا فقال: « زيد وما زيد ، جندب وما جندب » ، وروى لنا في لفظ آخر : «جندب وما جندب والأقطع الخير الخير ، فسئل عن ذلك فقال : جندب رجل من أمتي يضرب ضربة فيبعث بها أمة وحده يوم القيامة ». وأما الأقطع فرجل تقطع يده فتدخل الجنة قبل جسده ببرهة من الزمان وفي لفظ آخر : قال في جندب : يضرب ضربة يفرق بها بين الحق والباطل فكان الصحابة يرون الأقطع زيد بن صوحان قطعت يده يوم اليرموك ، وقيل يوم الجمل ، ويرون أن جندبًا هو جندب بن كعب الأزدي وضربته هي الضربة التي قتل بها الساحر اليهودي واسمه بطروني ، وكان الوليد بن عقبة بن أبي معيط عاملًا لعثمان رحمه الله على الكوفة فبلغه عن هذا الساحر ما يصنع (١٧٦/ ب) وكان بقرية من قرى بابل فأحضره مسجد الكوفة ليلًا وأمره أن يريه من أعماله فأراهم في صحن المسجد فيلًا على فرس يسير به وجبلًا ثم أراهم نفسه أنه قد صار ناقة فجعل يمشي على الجبل ثم أحضر رجلًا فضرب عنقه ثم رد رأسه عليه فقام يمشي وأحضر حمارًا ويقال : بقرة فجعل يدخل في فيها على ما يرى الناس ويخرج من دبرها وفي القوم جندب هذا فذهب إلى بيته فاشتمل على سيفه ثم أتى الساحر وهو يلعب فضرب عنقه على غفلة منه وقال له : احي نفسك إن كنت صادقًا ثم تلا قول الله سبحانه: ﴿ **أتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾ فتفرق الناس .

فالدجال مشعوذ ساحر جعله الله سبحانه فتنة لمن أدركه وأكد الفتنة به بما تضمنه الحديث من المطر والنبات وظهور الكنوز ولله سبحانه أن يبتلي عباده بما شاء ، مع انها فتنة لم تخل من لطف الله بأوليائه وتأييد إيمانهم بإظهار النقيصة والآفة عليه فجعله اعور قبيح العور.

روي حديث ابن عمر : أعور العين اليمنى ، ووسم ما بين عينيه باسم الكفر وعرَّفهم بعجزه عن إشفاء عوره إن كل ما يظهر مما يفتن شعوذة وسحر ، وليس هذا من نوع إجراء المعجزات على أيدي الكذابين ؛ لأن الدجال لا يدعي نبوة فيقيم المعجزة عليها لكنه يدعي الربوبية ، ولا خلاف في هذا وبه جاءت الآثار النبوية .

وكونه رجلًا شابًا أعور ينافي كونه إلهًا خالقًا رازقًا محييًا مميتًا نافعًا ضارًا فإنما يفتتن به المجسمة والذين لا يعرفون الله سبحانه وهم درء النار .

وقوله : « بين مهرودتين » أي بردتين أو ملأتين مصبوغتين بالهرد وهي عروق صفر.

وقوله: « فلا يحل لكافر » أي لا يمكنه أي تحرم عليه الحياة ، ومثله : ﴿ **وحرام على قرية** ... ﴾ الآية .

وقوله : « فتمسح وجوههم مثل » أي تجلو عنهم المكروه والكآبة .

وقوله : « النغف » هي دود تكون في أنوف الغنم والإبل واحدتها نغفة .

وقوله : « فرسى » أي هلكى وأصل الفرس دق العنق .

وقوله : « الزلفة » هي الموضع المصهرج الذي يجمع فيه الماء ، وقيل : هي المحارة الصدف التي يكون فيها اللؤلؤ في البحر وما أشبهها.

و«لدٌّ» مدينة قديمة من أعمال فلسطين .

ومن حديث حذيفة أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج ، فقال : يأجوج أمة ومأجوج امة كل أمة أربع مئة ألف امة ، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى الف ذكر من صلبه كل قد حمل السلاح ، وصنف منهم كالأرز ، قال : قلت يا رسول الله وما الأرز قال شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومئة ذراع في السماء ، قال : وصنف منهم عرضهم وطولهم سواء عشرون ومئة ذراع قال : وهؤلاء الذين لا يقوم لهم جبل ولا حديد ، وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف الأخرى ولا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير ولا حمل إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه ، مقدمتهم بالشام وساقهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية وذكرهم عبد الله بن عباس فقال : هم من نسل يافث بن نوح عليه السلام .

الكلام على قول الله سبحانه :
﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ... ﴾ إلى آخر السورة.

قوله : ﴿ **وما تعبدون** ﴾ من الشياطين والأتباع . وحصب النار وقودها سمي بذلك لأنها تحصب به أي ترمي .

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : أي حطبها يرمون فيها .

وقرأ علي كرمه الله : « حطب جهنم » بالطاء ، وقرأ ابن عباس حصْب جهنم بإسكان الصاد وهو المصدر ، لكن لم يتبعا على هاتين القراءتين .

﴿ **أنتم لها واردون** ﴾ فيه دليل على أن الورود الدخول وورود الأصنام النار ليس تعذيبًا لكنها من الحجارة التي هي وقود النار .

﴿ لو كان هؤلاء ألهة ... ﴾ الآية أي يقال لهم ذلك إذا وردوا النار ، وهذا لأن الإله لا يكون محكوكًا عليه ولا متصرفًا فيه .

﴿ **لهم فيها زفير** ... ﴾ الآية الزفير صوت من الجوف وهو متسع المخرج ومن أصوات النار إذا نفخ عليها بالكير زفير .

﴿ **وهم فيها لا يسمعون** ﴾ يمنعهم صوت التهاب النار من أن يسمعوا أصوات أنفسهم ، وقال ابن مسعود : إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فلا يسمعون شيئًا ولا يرى أحدهم أن في النَّار من يعذب غيره . وقيل: إذا قال الله : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ صاروا عميًا وبكمًا وصمًا . وقال مقاتل : إذا أغلقت أبواب النار لم سمعوا صوتًا ، وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وحول الكعبة ثلاث مئة وستون صنمًا وهناك جماعة من بني سهم فقرأ : ﴿ إنكم وما تعبدون ... ﴾ إلى قوله: ﴿ وكل فيها خالدون ﴾ وأشار بيده إلى القوم وإلى الأصنام ثم خرج .

وأتى عبد الله بن الزبعرى النادي وهم يخوضون فيما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال : لإن قالها (١٧٧/ ب) بين يدي لأخصمنه وعاد النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يتفرقوا فقال له ابن الزبعرى : أهي لنا ولآلهتنا خاصة أم لجميع الأمم وآلهتهم فقال : هي لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ولآلهتها فقال خصمتك ورب الكعبة ، الست تزعم أن عيسى نبي وتثني عليه وعلى امه خيرًا وقد علمت أن النصارى يعبدونهما ، وعزير يعبد والملائكة تعبد فإن كان هؤلاء معنا فقد رضينا فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما سكت عنه صلى الله عليه وسلم لتجاهله وبغيه وجواب الباغي المتجاهل السكوت ووجه تجاهله وبغيه أنه قد علم أن النبي صلى الله عليه وسلم ما عنى من المعبودات إلا من لم يزكه ولم يثن عليه وعلم أن من تزكيته عيسى ومن ذكر معه أنهم يوحدون الله ويعبدونه وينهون عن عبادة غيره ويتبرؤن ممن أشرك به ، فلولا تجاهله وبغيه ما ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقضي على هؤلاء بأنهم من حصب جهنم وفي هذا نزل قوله تعالى : ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلًا** ﴾ أي ضربه ابن الزبعرى مثلًا لآلهتهم وبين ذلك بقوله : ﴿ **وقالوا ألهتنا خير أم هو** ﴾ ثم أنزل الله سبحانه : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ... ﴾ الآيات . وقيل : إن قوله تعالى : ﴿ **وما تعبدون** ﴾ لا يدخل فيه من يعقل ولذلك قال : ﴿ لو كان هؤلاء﴾ فأشار إلى الأصنام الحاضرة وكذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأصنام حتى تلا الآية فقول النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا أجاب ابن الزبعرى : ولجميع الأمم وآلهتها عائد إلى ما قصد بالآية من الأصنام فذكر عبد الله بن الزبعرى عيسى وعزيرًا والملائكة تغابيًا وتعنتًا وإلزامًا لما لا يلزم ، والحسنى هي كلمة الله سبحانه السابقة لوجود السعداء من خلقه بأنهم أولياؤه المفلحون فلا يسعد أحد إلا من سبقت له الحسنى أولًا ، والآية تخص عيسى وعزيرًا والملائكة ثم تعم من قدَّر الله نجاته من النار وبعده عنها .

﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ أي صوت التهابها وحركتها وقيل: الحسنى الجنة وأهلها لا يسمعون حس النار .

﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ قال ابن عباس : يوم البعث .

﴿ **وتتلقاهم الملائكة** ﴾ قال: عند الخروج من قبورهم ، وقيل: تتلقاهم الملائكة الحفظة بالبشرى قائلين : ﴿ **هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾ أي : توعدون فيه الثواب ، وقال الحسن : الفزع الأكبر أن يؤمر بالعبد إلى النار ، وقيل : هو حين ينادي الملك : يا أهل النار خلود لا موت فيه ، والجمهور على انه إطباق النار على أهلها ، وكلام ابن عباس أبلغ في التأمين من الحزن وأشبه بالذين سبقت لهم الحسنى ، وقيل : تلقي الملائكة لهم حين دخولهم الجنة (١٧٨/ أ) وعن النعمان بن سليم أن عليًا كرمه الله خطب الناس على منبر الكوفة فقال : ما تقولون في تفسير هذه الآية : ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ فلم يجبه أحد فقال: إن الله عز وجل إذا أدخل أهل الجنة الجنة فرأوا ما فيها من النعيم خافوا أن يكون آخر ذلك الموت فيحزنهم ذلك ، وأن أهل النار إذا دخلوا النار ورأوا ما فيها من العذاب رجوا أن يكون آخر ذلك الموت فأراد الله سبحانه أن يقطع حزن أهل الجنة ورجاء أهل النار فبعث جبريل ومعه الموت في صورة كبش أملح فينادي : يا اهل الجنة فيسمع أعلاها درجة واسفلها درجة فيجيبونه فيقول : هل تعرفون هذا فيقولون : نعم هذا الموت ، ثم ينصرفون به إلى أهل النار وذكر مثل ذلك ، قال : ثم يرده إلى موضع ينظر إليه أهل الجنة وأهل النار ، فيقول : إنا ذابحوه ، فيقول أهل الجنة : نعم لكي يأمنوا الموت، ويقول أهل النار : لا لكي يموتوا ، قال : فيعمد جبريل فيذبحه وهم ينظرون إليه وينادي : يا أهل الجنة خلود لا موت فيه ، فيأمنون الموت فذلك قوله : ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ ، ثم ينادي : يا أهل النار خلود لا موت فيه فذلك قوله : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة** ﴾ فبين أن ذهاب حزن أهل الجنة هو يوم حسرة أهل النار .

﴿ **يوم نطوي السماء** ... ﴾ الآية الكتاب والكتابة سواء ، تقول : كتبت اكتب كتبًا وكتابًا وكتابة ، ويسمى الصحيفة التي كتب فيها كتابًا توسعًا فقيل: أي كطي السجل ليكتب فيه ؛ لأن السجل وهو الصحيفة الطويلة يطوى عند الكتابة فيه ويسمى الصحيفة المكتوبة سجلًا . قال مجاهد وقتادة والكلبي : السجل الصحيفة فيها الكتاب ، وقيل : السجل إذا طوي انطوت السطور المكتوبة فيه فنقل فعل الذي يطويه إلى السجل توسعًا وقال ابن عمر وابن عباس : السجل ملك . قال ابن عباس هو الذي يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه يعني – والله أعلم – عند موتهم ، وزعم قوم أن السجل معرب عن « سِكِلّ » بالفارسية ومعناه ثلاثة ختوم أي كتاب عليه ثلاثة ختوم ، قيل : هو من السَّجْل ، وهي الدلو فيها الماء ، فلا يقال : سجل إلا لصحيفة ملئت بالكتابة .

وللسماوات يوم القيامة أحوال منها أن تنفطر فتكون أبوابًا ، وهي وردة في لونها ومنها أن تطوى ومنها أن تذوب فتعود كالمهل.

﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ جملة مستأنفة مستقلة فيها الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى ، والخلق هاهنا (١٧٨/ ب) في موضع المخلوق ، وقال الزجاج : ليس هو بمعنى الخلوق بل المعنى: نعيد الخلق كما بدأناه ، وهذا وهم ؛ لأن الفعل لا يعاد إنما يعاد مثله ، والمخلوقون هم الذين تعاد ذواتهم كما بدئت ، وقيل: بل هو متعلق بما قبله أي نفني السماء فنعدمها كما كانت قبل أن نوجدها منعدمة وهذا وهم ؛ لأن الله سبحانه شبه طيها بموجود لا بمعدوم .

﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ أي قادرين على ذلك الفعل موجدين له .

﴿ **ولقد كتبنا في الزبور** ... ﴾ الآية قال ابن عباس : يريد زبور داود.

﴿ **من بعد الذكر** ﴾ يريد من بعد التوراة . وقال مجاهد وابن جبير وغيرهما : الزبور التوراة والإنجيل ، وزبور داود .

﴿ من بعد الذكر ﴾ أي من بعد اللوح المحفوظ ، وقيل : الزبور كل كتاب أنزله الله عز وجل على رسله : القرآن وغيره . والذكر أم الكتاب ، وقيل: كتب الله عز وجل القرآن وهو الذكر في اللوح المحفوظ قبل أن يكتب ما سواه من الكتب وكتب فيه : إن الأرض يرثها عبادي الصالحون ، ثم كتب ذلك في الزبور من بعد ان كتبه في القرآن هو العباد الصالحون أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم خير أمة

أخرجت للناس مكن الله تعالى لسلفهم في الأرض ، وفتح عليهم أفضلها وقضى لخلفهم الذين ينزل عيسى عليه السلام فيهم بالظهور على أهل الأرض كلهم .

روي لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والله لينزلن ابن مريم حكمًا عادلًا ، فيكسر الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد».

وأصحاب عيسى هم أمة محمد صلى الله عليهما وسلم كما روي لنا : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم ، وفي لفظ : فأمكم ، قال ابن أبي ذئب : أي أمكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم ، وقال ابن عباس : يريد أرض الجنة والصالحون المؤمنون ، ويشهد لهذا قول الله عز وجل : ﴿ **وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء** ﴾ .

﴿ **إن في هذا لبلاغًا** ﴾ قال ابن عباس : يريد القرآن ، قال غيره : فيه بلاغ إلى الجنة ، وقيل : المعنى أن في هذا الكلام كفاية للموحدين أي في : ما يحتاجون إليه من امر عبادتهم لله ، وقيل : البلاغ النهاية ، وهي أكثر من الكفاية ، ففيه نهاية ما يحتاج العابدون إلى علمه ، وقال ابن عباس: العابدون المطيعون . وقال غيره : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعبادتهم إقامتهم ما افترض عليهم .

﴿ وما أرسلناك (١٧٩/ أ) **إلا رحمة للعالمين** ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، يتضمن امتنانًا على من بعث إليهم . قال ابن عباس : رحمة للبر والفاجر . لأن كل نبي إذا كذب أهلك الله من كذبه ومحمد صلى الله عليه وسلم أخر من كذبه إلى الموت او القيامة ، واما من صدقه فله الرحمة في الدنيا والآخرة ، قيل : ذاته رحمة نعم للمؤمن والكافر كما قال تعالى : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم** ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما انا رحمة مهداة » ودعاؤه واستغفاره رحمة وبيانه ونصحه رحمة فرزق ذلك من قبله وحرمه من رده .

﴿ **قل أنما يوحى إلي** ... ﴾ الآية ، قيل : إن أبا جهل قال : للنبي صلى الله عليه وسلم دعنا نعمل لآلهتنا واعمل أنت لألهك ، فنزلت الآية ، قال ابن عباس : فقال المشركون ومن حق عليه العذاب : لا نسلم ، فنزل قوله تعالى : ﴿ فإن تولوا ... ﴾ الآية .

﴿ **آذنتكم على سواء** ﴾ أي أنذرتكم العذاب إنذارًا ساويتكم في العلم به ، وقيل : أي أعلمتكم بالحرب على سواء، قاله ابن عباس وغيره فالآية على هذا مدنية .

﴿ **وإن أدري** ﴾ أي وما أدري ، وقال ابن عباس : ﴿ **ما توعدون** ﴾ أجل القيامة ، لا يدريه أحد ، وهذا شاهد للقول الأول ، وقال : أي لا أدري أينزل العذاب بكم في الدنيا أم في الآخرة ، وهو حسن .

﴿ **إنه يعلم الجهر**... ﴾ الآية ، أي علمه بما تجهرون به كعلمه بما تسرونه .

﴿ **وإن أدري** ... ﴾ الآية ، قيل: الهاء من قوله عائدة إلى قوله : ﴿ **آذنتكم** ﴾ أي ما أدري لعل إنذاري فتنة لكم أي ابتلاء وامتحان تقوم به الحجة عليكم ، ولا تؤمنون فتمتعون في الدنيا إلى بلاغ أجالكم . وقيل: تعود إلى قوله : ﴿ **وإن أدري أقريب أم بعيد** ﴾ لأنهم فتنوا بذلك ، فقالوا : لو كان صادقًا لدرى . وقيل: المعنى وما أدري لعل إعراضكم عن قبول الإسلام فتنة لكم أي عذاب لكم . قال ابن عباس : ﴿ **لعله فتنة لكم** ﴾ يريد هلاكًا لكم . قال غيره : فتنة لكم يعني القتل ببدر.

﴿ **قل**(٣٠) **رب احكم بالحق** ﴾ أذن الله سبحانه لرسوله في الدعاء بالفصل بينه وبينهم ، وقيل: علمه ما يقول إذا حضره الجهاد في سبيل الله . فروي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا لقي المشركين قال : رب احكم بالحق .

واظن والله أعلم أن الراوي يعني أنه كان يقرأ الآية كلها لارتباط بعضها ببعض .

---

(٣٠) هكذا في الأصل وهي قراءة فيها . انظر : فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٨٨ – بتحقيق عبد الرحمن عميرة.

ومعنى قوله : ﴿ **احكم بالحق** ﴾ سؤال تعجيل ذلك ؛ لأن الله سبحانه لا يحكم إلا بالحق والوصف يستعمل مطلقًا فيراد بـه الكـذب إذا كان المراد مفهومًا عند السامع ومنه قول الله سبحانه : ﴿ **سيجزيهم وصفهم** ﴾ وإخباره تعالى عن يوسف عليه السلام أنـه قـال : ﴿**الله أعلم بما تصفون** ﴾ أي بكذبكم ؛ لأنهم قالوا : ﴿ **سرق أخ له مـن قبـل** ﴾ (١٧٩/ ب) وقـال ابـن عبـاس : ﴿ مـا تـصفون ﴾ يريـد مـن تكذيبهم إياه واتخاذهم الحجارة أربابًا ، زاد غيره : وما افتروه في أمر الملائكة عليهم السلام . والله سبحانه أعلم .